دراسة بلاغية
لأحاديث نبوية مختارة

د/فاطمة محمد النجار

المدرس بقسم البلاغة والنقد، كلية الدراسات الإسلامية

والعربية للبنات بالقاهرة، جامعة الأزهر.

دراسة بلاغية لأحاديث نبوية مختارة

فاطمة محمد النجار.

قسم البلاغة والنقد، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات ، القاهرة،جامعة الأزهر، جمهورية مصر العربية.

البريد الإلكتروني fatma.elnagar.60@azhar.edu.eg:

الملخص:

إن المتأمل في السنة النبوية يجد أنها جسدت بلاغة المصطفي –صلي الله عليه وسلم – فقد جاءت بروائع الكلام ، وتفوقت علي غيرها في كل ما يتصل بالكلام من وجوه الحسن.وهذا البحث أقدمه في بلاغة الحديث النبوي، تناولت فيه بعض الأحاديث النبوية، بهدف الوقوف علي أسرارها البلاغية وقد تناول البحث بعض الأحاديث النبوية المختارة ، وقد اعتمدت فيه علي شرح المفردات، وتحليل النصوص. ومن أهم نتائج البحث: تميز الحديث النبوي بالوضوح والبيان، والإيجاز والاختصار، وأكدت أيضا تفوق البلاغة النبوية في كل ما يتصل بالكلام من وجوه الحسن، ومن جمال الأسلوب وعمق المعنى.

الكلام المفتاحية: الأسرار البلاغية، تحليل النصوص، الأحاديث النبوية.

A Rhetorical Study of Selected Prophetic Hadith

Fatimah Mohamed El-Naggar.

Department of Rhetoric and Criticism, Faculty of Islamic and Arabic Studies, Women's branch, Cairo, Al-Azhar University, Egypt.

Email: fatma.elnagar.60@azhar.edu.eg

Abstract:

Whoever contemplates the Sunnah will find that it embodies the rhetoric of Prophet Mohammed (Peace and blessings be upon him), as it shows the best of words and surpasses other literatures in terms of beauty. The present study is concerned with the rhetoric of the Sunnah. Some hadiths are examined with the aim of exploring its rhetorical beauty. The study draws on some selected hadiths. It is based on explaining vocabulary and analyzing texts. The study arrives at some important conclusions as follows. Prophetic hadith is distinct for its clarity, eloquence, and brevity. The study asserts that Prophetic hadith surpasses other forms of writing in terms of eloquence, good style, and deep meaning.

Keywords: Rhetorical beauty, analysis of texts, prophetic hadiths.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلامعلى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

وبعد.

إن حديث الرسول – صلى الله عليه وسلم – خير ما يستوجب البحث فقد جاء بروائع الكلام ، فألفاظ النبوة منبعها القلب المتصل بجلال الخالق ، فهي لا تصدر إلا عن صدق ويقين .

وحين تتجسد هذه الألفاظ في صورة مادية ينطق بها لسان النبي – صلى الله عليه وسلم –الذي لا ينطق عن الهوى ، نراها في أرقى درجات البيان .

إن كلامه – صلى الله عليه وسلم – جمع بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام ،فهو النبع الذي يبقى ابدًا يفيض بالعلم والحكم والأمثال ، إذ جاءت أحاديثه غنية بالمعاني البلاغية والأسرار الدقيقة .

فالألفاظ مختارة بدقة وإتقان ،بالإضافة إلى عظمة الآداء الفني ، وجمال الجرس ،وعمق المعنى.

فهذا البحث أقدمه في الحديث النبوي وقد تناولت فيه بعض الأحاديث النبوية المختارة ، واعتمدت فيه على المنهج التحليلي للأحاديث لكشف أسرارها البلاغية .

وقداقتضت طبيعة البحث أن يخرج في الصورة التالية :

مقدمة وتمهيد وفصل واحد يشمل مايلي من الأحاديث المختارة:

النذير، أولياء الله وأحباؤه، الساعي على الأرملة ،المؤمن والإيمان ،الهجر ،التواضع ، الظلم ، الوصايا النبوية ، الدنيا والأخرة ، الرياء والسمعة ، فضل الفقراء ، زهرة الدنيا ،الفرق بين الإسلام والإيمان ، المنفق والبخيل ، عطاء الله للعبد .

والخاتمة ، وفهرس المصادر والمراجع ، وفهرس الموضوعات .

هذا وأسأل الله أن يوفقني لما يحبه ويرضاه ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

التمهيد

نشأ النبي – صلى الله عليه وسلم – في أفصح القبائل واخلصها منطقًا ،وأعذبها بيانًا ،فقد كان – صلى الله عليه وسلم–في اللغة القرشية التي هي أفصح اللغات وألينها ،فكان أفصحهم لسانًا وأبينهم بيانًا ،فقد عرفوا منه الفصاحة على أتم وجوهها وأشرف مذاهبها ، ورأوا له في أسبابها ما ليس لهم ولا يتعلقون به ولا يطيقونه .

فاللغة هي لغة الواضع بالفطرة القوية المستحكمة ،وأما البيان فبيان أفصح الناس نشأة ،وأقواهم مذهبا، وأبلغهم من الذكاء والإلهام ، وأما الحكمة فتلك حكمة النبوة

.وفي كتاب البيان والتبيين ، يوضح الجاحظالخصائص الفنية والجمالية للحديث النبوي بكل مكوناته ! الألفاظ والتراكيب الفنية ، وجمال النسق الأسلوبي ، وعمق المعاني ، وقوة التحدي ، وملاءمة المخاطبين ، والإيجاز والإطناب حسب مقامات الكلام وأحواله .

ويصف جماليات أسلوب المصطفى – صلى الله عليه وسلم – قائلا :

" هو الكلام الذي قل عدد حروفه ،وكثرعدد معانيه ، وجلّ عن الصنعة ، ونُزه عن التكلف ، واستعمل المبسوط في موضع البسط ، والمقصور في موضع القصر ،

وهجر الغريب الوحشي ،فلم ينطق إلا عن ميراث حكمةٍ ، ولم يتكلم إلا بكلام قد حُف بالعصمة ،وشُيد بالتأييد ، ويُسر بالتوفيق".[1]

(١) البيان والتبين للجاحظ ١٧/٢.

ويصف الرافعي بلاغة الرسول – صلى الله عليه وسلم – وصفًا رائعًا ، إذ يقول :

"هذه هي البلاغة الإنسانية التي سجدت الأفكار لآيتها وحصرت العقول دون غايتها،لم تصنع وهي من الإحكام كأنها مصنوعة،ولم يُتكلف لها وهي على السهولة بعيدةممنوعة.

ألفاظ النبوة يعمرها قلبٌ متصلٌ بجلال خالقه ، ويصقلها لسان نزل عليه القرآنبحقائقهفهي إن لم تكن من الوحي ولكنها جاءت من سبيله ، وإن لم يكن لها منه دليل فقد كانت هي من دليله ، محكمة الفصول ،حتي ليس فيها عروة مفصولة ، محذوفةالفضول ،حتى ليس فيها كلمة مفضولة.

كأنماهي في اختصارها وإفادتها نبضُ قلب يتكلم ،وإنما هي في شمولها وإجادتهامظهرٌ من خواطره –صلى الله عليه وسلم– ."[1]

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي ٢ /٢٧٩.

النذير

عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مثلي ومثل ما بعثني الله كمثل رجل أتى قومًا فقال : رَأَيْتُ الْجَيْشَ بِعَيْنَيَّ، وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ، فَالنَّجَاءَ النَّجَاءَ ، فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْقَوْمِهِ، فَأَدْلَجُوا، فَانْطَلَقُوا عَلَى مَهَلِهِمْ، فَنَجَوْا وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ، فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ، فَصَبَّحَ هُمُ الْجَيْشُ، فَأَهْلَكَهُ مْوَاجْتَاحَهُمْ" رواه البخاري ومسلم .(١)

****

المفرادت والأساليب:

النذير العريان :معناه أن الربيئة إذا كان على مرقب عال ، فبصر بالعدو ،نزع ثوبه فألاح به ينذر القوم ،فبقى عريانًا .

والإدلاج : سير أول النهار ، والدلجه :الظلمة .

مهلهم : بمعنى السكينة والتأني .

فصبحهم : أي أتاهم صباحًا .

فاجتاحهم : معناه استأصلهم وأهلكهم ، ومنه الجائحة التي تهلك الثمار وتهلكها .(٢)

(١) صحيح البخاري كتاب الرقاق حديث رقم ٦٤٨٢ومسلم كتاب الفضائل حديث رقم ٢٢٨٣

(٢) انظر شرح صحيح البخاري للخطابي ٢٢٥٠/٣،واللامع الصبيح بشرح الجامع الصحيح ٥١٦/٥

المعاني والتصوير:

(مثلي): المثل الصفة العجيبة الشأن يوردها البليغ على سبيل التشبيه لإرادة التقريب والتفهيم.

"أى: صفتي وصفة ما بعثني الله به من الأمر العجيب الشأن كصفة رجل أتى قومًا وشأنه[١] ."

ومن الإيجاز بالحذف قوله:"ما بعثني الله"العائد محذوف والتقدير :بعثني الله به إليكم.

والتنكير في قوله: "أتي قوما" للشيوع.[٢]

وقوله "رأيت الجيش" اللام للعهد، وقوله: (بعيني) بالإفراد[٣] .

قال الطيبي: "وفى قول الرجل :أنا النذير أنواع من التأكيدات: أحدها بعيني؛ لأن الرؤية لا يكون إلا بها، وثانيها قوله :(أنا)، وثالثها العريان؛ فإنه دل على بلوغ النهاية في قرب العدو،وفي ذلك تنبيه على أنه الذي يختصّ في إنذاره بالصدق"[٤] .

و(النذير والعريان) مثل يضرب لشدة الأمر، ودنو المحذور، وبراءة المحذر عن التهمة، وأصله أن الرجل إذا رأى العدو تجرد من ثوبه وأخذ يرفعه ويديره

(١) انظر فتح الباري لابن حجر ٣١٦/١١، شرح القسطلاني ٢٧٦/٩

(٢) الكاشف عن حقائق السنن للطيبي ٦١٢/٢.

(٣) فتح البارى لابن حجر ٣١٦/١١.

(٤) الكاشف عن حقائق السنن ٦١٢/٢.

حول رأسه إعلامًا لقومه بالغارة عليهم، ضرب به النبي –صلى الله عليه وسلم– المثل لأمته لأنه تجرد لإنذارهم"[١]

وقوله : (فالنجاء النجاء) أسلوب إغراء ، أي :انجوا بأنفسكم وأسرعوا بالهرب ، فإنكم لاتطيقون مقاومة ذلك الجيش .

فقوله : (فالنجاء النجاء) كناية عن الإسراع .

وقوله : (فأطاعته طائفة فأدلجوا على مهلهم فنجوا) ، ساروا أول الليل أو كله على مهلهم فنجوا من العدو .

وقوله : (وكذب طائفة ،فصبحهم الجيش فاجتاحهم) أتاهم صباحًا فأهلكهم .

تأمل هذه الصورة التي رسمتها هذه المقابلة الرائعة بين الطائفتين ،واستحضر في ذهنك صورة الطائفة التي أطاعت وسارت أول الليل فنجت ،وصورة الطائفة التي كذبت فأتاهم الجيش صباحًا فهلكت .

وقد شبه الرسول نفسه ودعوته إلى الحق وإنذاره بالعذاب بالنذير الذي رفع ثوبه حول رأسه وحركه بسرعة ليراه الناس ،ويعلموا بقدوم الجيش ،فيسرعوا بالنجاة .

ووجه الشبه :الهيئة المركبة من النجاة للطائفة التي صدقت الإنذار وأسرعت بالطاعة ،والهلاك والاستأصال للطائفة التي كذبت الإنذارواستمرت على العصيان .

(١) انظر الكوكب الدراري فى شرح صحيح البخاري ٨/٢٣، الكاشف عن حقائق السنن ٦١٢/٢.

قال الطيبي :التشبيه من التشبيهات المفرقة ،شبه ذاته –صلى الله عليه وسلم – بالرجل ،وما بعثه الله من إنذار القوم بعذاب الله القريب بإنذار الرجل قومه بالجيش المصبح ،وشبه من أطاعه من أمَّتهِ ومن عصاه بمن كذب الرجل في إنذاره ومن صدقه . "[1]

(١) الكاشف عن حقائق السنن ٦١٢/٢

أولياء الله وأحباؤه

عن أبـي هريرة قال :قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: إن الله عز وجل قال :"منْ عادى ليوَلِيّاً. فقدْ آذنتهُ بالْحرْب. وَمَا تقرَّبَ إِلَيَ عبْدِي بِشْيءٍ أَحبَّ إِلَيَ مِمَّا افْتَرَضْت عليْهِ: وَمَا يَزالُ عَبْدِي يتقرَّبُ إِلى بالنَّوافِل حَتَّى أُحِبَّه، فَإِذا أَحبَبْتُه كُنْتُ سمعهُ الَّذي يسْمعُ بِهِ، وبَصره الَّذِي يُبصِرُ بِهِ، ويدَهُ الَّتي يَبْطِش بِهَا، ورِجلَهُ الَّتِي يمْشِي بِهَا، وَإِنْ سأَلنِي أَعْطيْتَه، ولَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَّنه وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ المُؤْمِنِ، يَكْرَهُ المَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ. رواه البخاري [1]

*****

المفردات والأساليب :

الولي : ضد العدو ،وهو من يتولى الله أمره وحفظه فلا يتركه إلى نفسه .

آذنته بالحرب : أعلمته بالهلاك والنكال .

يتقرب إلي : أي يحاول القرب من مواطن رحمتي لينال مثوبتي .

النوافل :جمع نافلة ،وهي في الأصل الزيادة ،والمراد بها هنا ماكان فوق الفرض وهو التطوع .

كنت سمعه : احفظه كما يحفظ العبد جوارحه من التلف والهلاك ،وأوفقه لما فيه خيره وصلاحه ،وأعينه في المواقف ،وأنصره في الشدائد .

---

(١) صحيح البخاري كتاب الرقاق حديث رقم(٦٥٠٢)وفتح الباري لابن حجر كتاب الرقاق حديث رقم (٦٥٠٢) ومختصر صحيح البخاري للالباني كتاب الرقاق حديث رقم (٢٤٩٢) .

استعاذ بي : أي استجار بي مما يخاف .[١]

****

المعاني والتصوير :

بدأ هذا الحديث بالتهديدالشديد بأن من عادى لله وليا فقد تعرض للهلاك ومحاربة الله له ؛ لأن من كره من أحب الله خالف الله ، ومن خالف الله عانده ، ومن عانده أهلكه ، وإذا ثبت هذا في جانب المعاداه ثبت في جانب المولاه ، فمن والى أولياء الله أكرمه الله .[٢]

قوله: (من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب) والمعنى :أن هولاء الأولياء يقف معهم الله ويمدهم بالنصرة والتأييد .

وكلمة (وليا) توحي لك بمعنى الدنو والقرب ،والوالي في اللغة هو المحب والصاحب والحليف ،والجار والشريك والقريب ، فاختيارهذه الكلمة أدق من السحر.

وكلمة (آذنته)شديدة الجرس ثقيلة الوقع على النفس ،ترسم بجرسها الذي تلقيه في الأذن ،وبوزنها التي تلقيه في الخيال معنى الإنذار والتهديد والوعيد الشديد [٣] .

والمعنى : أعلمته بالحرب ، والمراد لازمه ؛ أي أعمل به ما يعمله العدو المحارب من الإيذاء ونحوه ، فقوله (بالحرب) كناية عن الهلاك [٤] .

---

(١) انظر صحيح البخاري الهامش تعليق مصطفى البغا ١٠٥/٨

(٢) فتح الباري لابن حجر ٣٤٢/١١ ، شرح القسطلاني ٢٨٩/٩. بتصرف .

(٣) من روائع الأدب النبوي ٩٠ بتصرف .

(٤) انظر الكواكب الدراري ٢٢/٢٣، التوشيح شرح الجامع الصحيح ٣٨٦٣/٨ .

" والعبارة كلها (من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب) عبارة مصورة لمعناها أجمل تصوير في طريقة تركيبها وترتيب كلماتها ، وتأمل جملتي الشرط والجواب ، ترى اقتران جملة الشرط بالجواب بالفاء التي توحي بسرعة نصرة الله تعالى لأوليائه دون إبطاء ."[١]

وقوله :(وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه)

المعنى : أن آداء الفرائض كما شرعها الله يعد من أحب الأعمال .

ومفردة (تقرَب) بهذه الصيغة على وزن الفعل (تفعل) يوحي ببذل الجهد والمكابده والمعاناه ومجاهدة النفس في محاولة العبد التقرب من مولاه عز وجل .[٢]

وقوله :(ولا يزال عبدي يتقرب إليَ بالنوافل حتى أحبه)

فهنا إصرار من العبد على رضا مولاه بالتقرب إليه بفعل الطاعات الزائدة عما فرضه الله على سائر خلقه .

وقد اختارالرسول عليه الصلاة والسلام الألفاظ والعبارات الدالة على هذا الإصرار والرغبة الصادقة في إخلاص العبودية والطاعة إلى الله ، فقد قال (ولايزال) بهذا التعبير الموفق الذي يدل على الدوام والاستمرار ، ثم اعقبه بكلمة (عبدي)فالإضافة

توحي بالمودة والحنو والقرب ، ثم قال (يتقرَب) بصيغة الفعل المضارع الدال على الاستمرار مع مجاهدة النفس ،والبعد عن شهوات الدنيا ،ووزن الكلمة

(١) من روائع الأدب النبوي ٩٠.

(٢) انظر من روائع الأدب النبوي ٩١ وما بعدها .

يوحي بذلك ، فتقرب بمعنى (تفعل) يدل على المعنى دلالة صريحة وواضحة .[١]

وقوله:(فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها) أي:"كنت متوليه في جميع حركاته وسكناته ."[٢]

وقيل "قوله : (كنت سمعه ..... إلى آخره) ،هو من المجاز ،يعني :أنه يحفظه كما يحفظ العبد جوارحه لئلا يقع في مهلكة ".[٣]

وقيل : "أن لاتتحرك جارحة من جوارحه إلا فى الله ، وبالله ، ولله ،فجوارحه كلها تعمل بالحق ."[٤]

قال الخطابي : " هذه أمثال ضربها ، والمعنى – والله أعلم – توفيقه للأعمال التي يباشرها بهذه الأعضاء ، وتيسير المحبة له فيها ، فيحفظ جوارحه عليه ، ويعصمه عن مواقعة ما يكره الله من إصغاء إلى اللهو بسمعه ، ونظر إلى ما نهى عنه ببصره ، وبطش إلى ما لايحل له بيده ، وسعي في الباطل برجله ، وقد يكون معناه سرعة إجابة الدعاء ، والإلحاح في الطلب ، وذلك أن مساعي الإنسان إنما تكون بهذه الجوارح الأربع ."[٥]

وقوله : (كنت سمعه) إلى آخره كناية عن الحفظ ،فالله بجانبه دائما يحفظ جوارحه عن المحرمات ، فلا تعمل إلا بالحق .

---

(١) انظر المرجع السابق ٩٢ .

(٢) التوشيح شرح الجامع ٣٨٦٣/٨ .

(٣) التوضيح لشرح الجامع الصحيح ٥٨٤/٢٩.

(٤) مصابيح الجامع ٤٤٧/٩ .

(٥) أعلام الحديث للخطابي ٢٢٥٩/٣ .

قال الفاكهاني : "هو فيما يظهر لي أنه على حذف مضاف والتقدير :كنت حافظ سمعه الذي يسمع به ، فلا يسمع إلا ما يحلَ استماعه ،وحافظ بصره كذلك ، إلخ ."[١]

وقال الطُوفيُ : "اتفق العلماء ممن يعتدُ بقوله أن هذا مجاز وكناية عن نصرة العبد وتأييده وإعانته ."[٢]

******

وقوله :(ولئن سألني لأعطينه ،ولئن استعاذني لأعيذنه)

فحينئذ إذا سأل العبد المؤمن الصالح ربه أعطاه ما سأل ، وإن استعاذ به من شيء أعاذه .

"وتأمل تأكيد هذا المدد والعون الإلهي لهذا العبد الرباني في قوله : (لأعطينه) بتوكيد الفعل المضارع باللام ونون التوكيد ، ومثله (لأعيذنه) [٣] " ،وهذا التوكيد من الله يدل على منزلة الولي عنده عز وجل .

وقوله: (ماترددت) كناية عن اللطف والشفقة وعدم الإسراع بقبض روحه .

وقوله : (مساءته) إساءته بفعل ما يكره .[٤]

تأمل كيف بدأ الحديث بأن ذكر سبحانه أن معاداة أوليائه محاربة له ، وكيف أخذ يذكر بعد ذلك مباشرة وصف أوليائه الذين تحرم معاداتهم وتجب

(١) فتح الباري ٣٤٤/١١ .
(٢) المرجع السابق ٣٤٤/١١
(٣) من روائع الأدب النبوي ٩٤ .
(٤) انظر صحيح البخاري الهامش ١٠٥/٨.

موالاتهم ، وهم الذين يتقربون إليه بما يقربهم منه ، كما أن أعداءه هم الذين يبتعدون منه بأعمالهم المقتضية لطردهم وإبعادهم منه .

قال الطوفي : "لما كان ولي الله هو من كان تولى الله بالطاعة والتقوى ؛تولاه الله بالحفظ والنصرة ،فإن الله تعالى يحب الأبرار الأتقياء الأخفياء الذين إذا غابوا لم يفتقدوا ، وإذا حضروا لم يدعوا ولم يعرفوا، وهم مصابيح الهدى يخرجون من كل غبراء مظلمة ، فأولياء الله تجب موالاتهم وتحرم معادتهم ،كما أن أعداء الله تجب معادتهم وتحرم موالاتهم . "[١]

قال الإمام ابن تيمية في رسائله :

"أولياء الله هم الذين آمنوا وكانوا يتقون كما ذكر الله تعالى في كتابه[٢] : (الا إن اولياءالله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون)

****

(١) من روائع الأدب النبوي ١٠١.

(٢) المرجع السابق ٩٩.

الساعي على الآرملة والمسكين

عن أبي هريرة قال النبي –صلى الله عليه وسلم– :"السَّاعِي علَى الأرْمَلَةِ والمِسْكِينِ، كالْمُجاهِدِ في سَبيلِ اللَّهِ، أوِ كالذي يصُوم النَّهارَ ويقومُ اللَّيلَ".(١)

****

المفرادت والأساليب :

(الساعي): أي الكاسب عليها العامل في مصلحتها ،(الأرملة):من لا زوج لها .(٢)

المعاني والتصوير :

من يعمل بهذا الحديث ،ويحرص على هذه التجارة التى لاتبور،ويسعى على أرملة أو مسكين لوجه الله تعالى ، يربح في تجارته درجات المجاهدين والصائمين والقائمين من تعب ولانصب .(٣)

وقوله :(كالمجاهدفي سبيل الله) أي" : ثواب القائم بأمرهما وإصلاح شأنهما والإنفاق عليهما ،كثواب الغازي في جهاده ، فإن المال شقيق الروح ،وفي بذله مخالفة النفس ومطالبة رضا الرب ."(٤)

---

(١) صحيح البخاري كتاب الآداب حديث رقم (٦٠٠٦)ومسلم كتاب الزهد والرقئق حديث رقم (٢٩٨٢) شعب الإيمان باب في رحم الصغير وتوقير الكبير حديث رقم (١٠٥١٨) وسنن الترمذي باب ما جاء في السعي على الأرملة واليتيم حديث رقم (١٩٦٩)

(٢) (٢) انظر الكواكب الدراري١٦٨/٢١.

(٣) انظر شرح صحيح البخاري لابن بطال٢١٨/٩.

(٤) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٣١٠١/٧ .

فقد شبه الساعي بالمجاهد ، كما شبهه ايضا بالصائم والقائم في الثواب والأجر العظيم،وفي هذه التشبيه ترغيب شديدعلى السعي على الأرملة والمسكين .

ولايخفى جمال المقابلة في قوله (كالذي يصوم النهار ويقوم الليل) فقابل بين العبادة بالصوم في النهار، والصلاة في الليل ، فالصوم يقابل الصلاة ، والنهار يقابلالليل .

قال ابن بطال :"من عجز عن الجهاد في سبيل الله ،وعن قيام الليل وصيام النهار ،فليعمل بهذا الحديث وليسع على الأرامل والمساكين ؛ ليحشر يوم القيامة في جملة المجاهدين في سبيل الله دون أن يخطو في ذلك خطوة ،أو ينفق درهما ،أو يلقى عدو يرتاع بلقائه ،أوليحشر في زمرة الصائمين والقائمين وينال درجتهم وهو طاعم نهاره ، نائم ليله أيام حياته . " [1]

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال ٩/٢١٨ .

المؤمن والإيمان

عن أبي سعيد – رضي الله عنه – عن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال : "مَثَلُ الْمُؤْمِنِ وَمَثَلُ الْإِيمَانِ كَمَثَلِ الْفَرَسِ فِي آخِيَّتِهِ، يَجُولُ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى آخِيَّتِهِ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ يَسْهُو ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى الْإِيمَانِ، فَأَطْعِمُوا طَعَامَكُمُ الْأَتْقِيَاءَ، وَأَوْلُوا مَعْرُوفَكُمُ الْمُؤْمِنِينَ."(١)

رواه البيهقي في شعبالإيمان ، وأبونعيم فى الحلية.

المفردات والأساليب :

الآخية : بالمد والتشديد ، ما يُشَدُ به الفرس وغيره من وتد وغيره كالحبل .

يجول: أي : يدور، وَأَوْلُوا: من الإيلاء وهو الإعطاء ، أي :خُصوا .

المعروف : الإحسان والعطية .

والمراد بالإيمان هنا : شعب الإيمان ؛ كالصلاة والزكاة والصوم وغيرها .

وإن المؤمن يسهو : أي :عن الإيمان بالغفلة عن مراتب الإحسان(٢) .

المعاني والتصوير :

"والمعنى أن المؤمن مربوط بالإيمان لانفصام له عنه ، وأنه اتفق أن يحوم حول المعاصي ويتباعد عن قضية الإيمان من ملازمة الطاعة والاجتناب عن المعاصي، فإنه يعود بالآخرة إليها بالندم والتوبة وتلافي ما فرط فيها."(٣)

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي كتاب الجود والسخاء حديث رقم(١٠٤٦٠) ،

(٢) انظرالمفاتيح في شرح الصابيح ٥٢٧/٤، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٢٧٣٧/٧.

(٣) الكاشف عن حقائق السنن٢٨٧٠/٩

فقد شبه حال المؤمن الذي يترك بعض شعب الإيمان ثم يعود إليها ، بحال الفرس الذي يبعد عن آخيته ثم يعود إليها ،والتشبيه تمثيلي ؛ لأن الوجه منتزع من عدة أمور : وهي الابتعاد عن الشيء مع عدم الانفصال عنه ،ثم العودة إليه مرة آخرى.

وقوله :(وإن المؤمن يسهو) "إشارة إلى أن من شأن المؤمن أن لايعصي متعمدًا،ولو وقع منه شيء من ذلك لم يكن إلا سهوًا أو خطأ "[١]

(والسهو) هنا كناية عن المعصية والتقصير .

فالمؤمن يتدارك ما فات عنه ويندم على ما فعل من التقصير ويعود إلى الإيمان .

ومن الإيجاز بالحذف قوله : (فأطعموا) فهو "جزاء شرط محذوف أى : إذا كان حكم الإيمان حكم الآخية فقووا الوسائل بينكم وبينه .[٢]

وقوله :(فأطعموا طعامكم الأتقياء وأولوا معروفكم المؤمنين) فأسلوب الأمرفي قوله : (فأطعموا ، وأولوا) الغرض منه النصح والإرشاد للمؤمنين ، "وإنما خصَ صلى الله عليه وسلم – الأتقياء بالإطعام : لأن الطعام يصير جزءًا لبدنٍ فيتقوى به على الطاعة ، فيدعو لك ، ويستجاب دعاؤه في حقك"[٣]

والمعنى : أطعموا طعامكم الأتقياء ،وخُصّوا إحسانكم وعطاياكم بالمؤمنين أجمعين دون المنافقين والكافرين .

---

(١) لمعات التنقيح في شرح مشكاة المصابيح ٢٩٠/٧ .

(٢) مرقاة المفاتيح ٢٧٣٧/٧ ، الكاشف عن حقائق السنن ٢٨٧٠/٩ .

(٣) مرقاة المفاتيح ٢٧٣٧/٧ .

كما جاء الوصل بين الجملتين للإتفاق في الإنشائية لفظًا ومعنى ، فالمناسبة ظاهرة ،إذ المسند إليه فيهما واحد ، والمسند في كل من الجملتين من الأمور المستحبة فعلها.

وجاءت المقابلة لتأكيد المعنى وتقويته ،حيث قابل بين أطعموا وأولوا ، وبين طعامكم ومعروفكم ، والأتقياء والمؤمنين .

****

الهجر

عن أبي خراش السلمي سمع رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يقول : "مَنْ هجَرَ أخاهُ سَنةً ، فهوَ كَسَفْكِ دَمِه "[١]

المفردات :

الهجر :ضد الوصل

السفك :الإراقة والصب [٢]

المعاني والتصوير :

والمعنى : أن "مهاجرة الأخ المسلم سنة توجب العقوبة ، كما أن سفك دمه يوجبها

فهي شبيهة بالسفك من حيث حصول العقوبة بسببها ، لأنها مثله في العقوبة ؛ لأن القتل كبيرة عظيمة لايكون بعد الشرك أعظم منه ، فشبه الهجران به تأكيدًا في المنع عنه وفي المشابهة تكفي المساواة في بعض الصفات ."[٣]

وقيل : "المهاجرةعن الأخ المسلم حرام كسفك دمه ،وليس معناه :أن إثم سفك الدم وإثم المهاجرة سواء ، بل إثم سفك الدم أعظم من جميع الكبائر بعد الشرك ، بل المراد اشتراكهما في حصول الإثم لا في قدر الإثم ، ولا يلزم

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي باب الث على ترك الغل والحسد حديث رقم (٦٢٠٧) مختصر سنن أبي داودللمنذري باب فيمن هجر أخاه المسلم حديث رقم (٤٩١٥/ ٤٧٤٧)الآداب للبيهقي باب في هجر المسلم أخاه في الدين حديث رقم (٢٣٠) .

(٢) مختار الصحاح مادة (هـ ج ر ، س ف ك)

٣مرقاةالمفاتيح ٣١٥٣/٨ .

مساواة المشبه والمشبه بهفي جميع الأشياء ، بل يكفي المساواة بينهما في شيء واحد ."[1]

أي الهاجرسنة كالقاتل حرمة، فكما أن سفك الدم حرام ،فكذلك هجرالأخ سنة حرام

والتشبيه في الحديث من تشبيه المعقول بالمحسوس ، لإبراز المعاني في صورة محسوسة حتى تتمكن في النفس فضل تمكن .

فيتصور الهاجر تأثير هجره أخاه المسلم ،وما يسببه له من الألم النفسي والقتل المعنوي ، بصورة سفك الدم وما يترتب عليه من الجروح والموت،والبشاعة في المشهد ،وهذا على سبيل المبالغة في كراهية الهجر بين الأخوة ، فالهجر كالقتل ، لما يترتب عليه من العداوة والحقد والكراهية بين المسلمين ، فالإسلام حريص على توثيق العلاقات الاجتماعية بين المسلمين.

(١) المفاتيح في شرح المصابيح ٢٣٨/٥ .

التواضع

عن حارثة ابن وهب الخزاعي عن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال : " ألا أخبركم بأهل الجنة ؟ كل ضعيف متضعف ، لوأقسم على الله لأبره ، ألا أخبركم بأهل النار ؟ كل عتل جواظ مستكبر ".[١] رواه البخاري ومسلم .

ويروى :" كل جواظ زنيم متكبر "[٢]

المفردات والأساليب :

{كل ضعيف متضعف }: بفتح العين ، أي : من يستضعفه الناس ويحتقرونه ، ويتجرأون عليه لضعف حاله في الدنيا ، وروي بكسر العين ومعناه : متواضعٌ متذللٌ خاملٌ واضعٌ من نفسه ، وقيل : المراد به الخاضع لله تعالى .

و{ متضعف }:فائدة التاء الموضوع للطلب أن الضعف الحاصل فيه كأن مطلوب منه التذلل والتواضع ، مع إخواته وإن كان قويا مترجلا مع أعدائه .

{لو أقسم على الله }، بأن يقول : بحقك يارب ! افعل كذا .

{لأبره }أي لأمضاه على الصدق .[٣]

قال الطيبي :" أيلو حلف يمينا في كرم الله بإبراره لأبره ".[٤]

---

(١) صحيح البخاري باب الخصام حديث رقم (٦٠٧١) شعب الإيمان للبيهقي فصل في التواضع وترك الزهو حديث رقم (٧٨٢٤) والآداب للبيهقي حديث رقم (٢٠٣) .شرح المصابيح ٣٤٩/٥ .

(٢) المفاتيح في شرح المصابيح ٢٥٤/٥.

(٣) انظرمرقاة المفاتيح ٣١٨٨/٨

(٤) الكاشف عن حقائق السنن ٣٢٤٤/١٠ .

{عتل } بضم العين والتاء وتشديد اللام :الشديد الخصومة بالباطل ، وقيل : الفظ الغليظ الذي لاينقاد ويتجبر .

{جواظ} بتشديد الواو ، أي : جموع منوع ، أو مختال .

{الزنيم} : الفاجر ، وقيل : اللئيم ، وقيل من نسب إلى رجل وليس هو منه .

وينبغي أن يفسر بالمعنى الأعم وهو اللئيم المعروف بلؤمه أو شره على ما في القاموس .

ويمكن أن يكون (الزنيم) كناية عن هذا الوصف وهو (اللؤم) فإنه لازمه غالبا.[1]

****

المعاني والتصوير :

هذا الحديث الشريف يتضمن بعض صفات أهل الجنه وأهل النار ، فقد أخبر النبي –

- عن تلك الصفات فقال :

(ألا أخبركم بأهل الجنة ؟) فعمد إلى أسلوبالاستفهام الذي يدعو إلى الحض والتهييج وإثارة الانتباه ،واستعمل الهمزة لخفتها ورقتها ومناسبتها لمقتضى الحال ،

(١) انظر المفاتيح في شرح الصابيح ٢٥٤/٥ ، شرح المصابيح ٣٤٩/٥،مرقاة المفاتيح ٨ /٣١٨٨.

وأدخلها على (لا) التي تفيد النفي ، والاستفهام يحيل النفي إثباتًا كما يحول الإثبات إلى النفي ، وقد دخل هنا على نفي الإخبار فكان دليلا على إثباته ووجوبه .

وفي هذا الاستفهام كما نرى من الإثارة والإغراء بضرورة الانتباه لتلقي الخبر ،وكذلك الاستفهام فى قوله –صلى الله عليه وسلم – (ألاأخبركم بأهل النار) .

وتأمل جمال الكنايه في قوله (لو أقسم على الله لأبره) فهي كناية عن محبة الله سبحانه وتعالى للمتواضع .

وقد عبر الرسول– صلى الله عليه وسلم – عن أهل الجنة بألفاظ عذبة رقيقة توحي بالتواضع والخضوع (ضعيف متضعف) ،وعبر عن أهل النار بألفاظ قوية عنيفة توحي بالغلظة والتكبر والتجبر (عتل– جواظ – مستكبر).

والمقابلة في الحديث أكدت المعنى ، ووضحت أن أغلب أهل الجنة والنار هذان الفريقان ،حيث قابل بين (ألا أخبركم بأهل الجنة) و(ألا أخبركم بأهل النار) وبين (ضعيف متضعف) و(عتل جواظ) .

****

الظلم

عن جابر أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال : "اتَّقُوا الظُّلْمَ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاتَّقُوا الشُّحَّ، فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْسَفَكُوا دِمَاءَهُمْ، وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ ".[1] رواه مسلم

****

المفردات والأساليب :

{الشح} :منع الواجب ، وقيل : هو الحرص الشديد الذي يحمله على ارتكاب المحارم وإتيان الفواحش .

قوله {حملهم على أن يسفكوا دماءهم} ،يعني :حرضهم على جمع المال ،حتى قتل بعضهم بعضًا لأخذه .

{واستحلوا محارمهم} ، أي:اتخذوا ما حرم الله من نسائهم حلالا.[2]

قال صاحب القاموس : المحارم جمع مَحْرَمَ ،(مَحْرُمَة) وقد تفتح الراء (مَحْرَمَة) وهي ما حرم الله فعله وعمله على العباد ،وفي الحديث :"ألا وإن حمى الله في الأرض محارمه ".[3]

(١) صحيح مسلم كتاب البر والصلة والأداب حديث رقم ٢٥٧٨ ، شعب الإيمان للبيهقي باب الجود والسخاء حديث رقم (١٠٣٣٨) .

(٢) المفاتيح في شرح المصابيح ٢٥٨/٥ ،شرح المصابيح ٣٥٧/٥.

(٣) القاموس المحيط مادة (ح ر م) .

المعاني والتصوير:

قوله –صلى الله عليه وسلم – (اتقوا الظلم) "أي المشتمل على الشح وغيره من الأخلاق الدنية والأفعال الردية ."[١]

واستخدم الرسول – صلى الله عليه وسلم – أسلوب الأمر لغرض النصح والإرشاد للمؤمنين ، ثم قرب لهم صورة الظلم بصورة حسية فقال : (فإن الظلم ظلمات يوم القيامة) أي: الظلم كالظلمات ، فقد شبه الرسول – صلى الله عليه وسلم –الظلم بالظلمات في عدم الاهتداء ، فالظلم يجعل صاحبه في تخبط وضلال ، فلا يعرف الحق ولا يعرف طريق الهداية .

فتأمل بلاغته – صلى الله عليه وسلم – وروعتها في تقريب الحقائق المعنوية في صورة حسية تراها بعينك .

وقد تكون (الظلمات) كناية عن شدائد وأهوال يوم القيامة .

قال الطيبي :"محمول على ظاهرة ، فيكون الظلم ظلمات على صاحبه لا يهتدي بسببها ، كما أن المؤمنين يسعى نورهم بين أيدهم ، أوالمراد بها الشدائد ."[٢]

وقوله : (واتقو الشح) أي : البخل الذي هو نوع من الظلم .

وقيل :" الشح بخلٌ مع الحرص ، وأفرد الشح بالذكر تنبيها على أنه أعظم أنواع الظلم ، فإنه منشأ المفاسد العظيمة ونتيجة محبة الدنيا الذميمة ".[٣]

---

(١) مرقاة المفاتيح ١٣٢١/٤.

(٢) الكاشف عن حقائق السنن ١٥٢٥/٥.

(٣) مرقاة المفاتيح ١٣٢١/٤.

وعطفت جملة (واتقوا الشح) على جملة (اتقوا الظلم) ؛ لأن بين الجملتين اتفاقًا في الإنشائية لفظًا ومعنى ، والمناسبة بين الطرفين ظاهرة،هذا ما يسمى بالتوسط بين الكمالين .

"فعطف الشح الذي هو نوع من أنواع الظلم على الظلم ليشعرأن الشح أعظم أنواعه؛ لأنه نتيجةحب الدنيا وشهواتها ،ومن ثم علله بقوله:(فإن الشح أهلك من كان قبلكم) ، ثم علله بقوله:(حملهم على أن سفكوا دماءهم)على سبيل الاستئناف ؛ فإن استحلال المحارم جامع لجميع أنواع الظلم من الكفر والمعاصي ، وعطفه على سفك الدماء من عطف العام على الخاص عكس الأول ".(١)

وقوله:(فإن الشح أهلك من كان قبلكم) فقد جاء الرسول– صلى الله عليه وسلم– بالجملة الاسمية المؤكدة بإن ، لأبراز هذه الحقيقة الخطيرة ، وهي هلاكهم بسبب الشح .

وقوله :(حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم) العطف بينهما للتوسط بين الكمالين ،فالجملتان خبريتان لفظًا ومعنى ،والتناسب ظاهر بينهما .

وقد عبر الرسول – صلى الله عليه وسلم – بتلك الصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهني (للشح) فخلع عليه الحياة الإنسانية ، فجعل الشح يهلك الناس .

ففي (الشح) استعارة مكنية ،حيث شبه الشح بإنسان له نفوذه وسلطانه الذي لايقهر،وحذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو يهلك .

---

(١) الكاشف عن حقائق السنن٥/١٥٢٥.

ونجد المقابلة بين (سفكوا واستحلوا) وبين (دماءهم ومحارمهم) وهذه المقابلة تقوي الصلة بين الألفاظ والمعاني وتوضحها .

"وإنما كان الشح سبب سفك الدماء واستحلال المحارم ؛ لأن في بذل الأموال ومواساة الإخوان التحاب والتواصل ، وفي الإمساك والشح التهاجر والتقاطع، واستباحة المحارم ".[1]

****

(١) المرجع السابق ٥/١٥٢٦.

الوصايا النبوية

عن ابن عباس قال :"كنت خلف رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يوما ، فقال : يَاغُلَامُ! إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ ."[1] رواه الإمام أحمد والترمذي .

****

المفردات والأساليب :

{ يا غلام } :المراد بالغلام هنا الولد الصغير لا المملوك .

{احفظ الله} أي: أمره ونهيه .

{يحفظك} أي : يحفظك في الدنيا من الآفات والمكروهات ،وفي العقبى من أنواع العقاب .

{احفظ الله} :أي : حقه من دوام ذكره وقيام شكره .

{تجده تجاهك}: أي : أمامك.

{وإذا سألت }: أي : أردت السؤال .

{فاسأل الله } أي :فاسأل الله وحده .

(١) سنن الترمذي باب الرقاق حديث رقم (٢٥١٦) .

{وإذا استعنت} أي : أردت الاستعانة في الطاعة وغيرها من أمور الدنيا والآخرة .

{فاستعن بالله} فإنه المستعان وعليه التكلان في كل زمان ومكان .

{رفعت الأقلام } أي :من كتابة الأحكام .

{جفت الصحف} أي : نشفت مادون فيها من أقضية المخلوقين إلى يوم القيامة .[1]

****

المعاني والتصوير :

معنى الحديث : إذاحفظت طاعة الله وجدته يحفظك وينصرك في مهماتكأينما توجهت، ويسهل لك الأمور التي قصدت ، واعلم أن جميع الخلق لو اجتمعوا على أن ينفعوك أو يضروك بشيء ؛ لم يقدروا أن ينفعوك ، أو يضروك إلا بشيء قد كتبه الله لك أو عليك .

فقد كتب في اللوح المحفوظ ماكتب من التقديرات ، ولايكتب بعد الفراغ منه شيء أخر.[2]

تأمل كيف بدأ رسول الله –صلى الله عليه وسلم– حديثه الكريم مع ذلك الغلام الصغير بأسلوب النداء (ياغلام) للترغيب والتحبيب ، فقد استعمل الرسول –صلى الله عليه وسلم– أسلوب الترقيق والتحبب في مخاطبة الغلمان مراعاة لمقتضى الحال .

(١) انظر مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٣٣٢٣/٨ ومابعدها .

(٢) مرقاة المفاتيح ٣٣٢٤/٨بتصرف .

وهذا الحديث الشريف من بدائع جوامع كلمه –صلى –فقد اشتمل على وصايا يجب أن يهتدى بها المسلم :

الوصية الأولى : قوله : –صلى الله عليه وسلم– (احفظ الله يحفظك) فالمراد بحفظ العبد لله ،حفظ فرائضه وحدوده وحقوقه ، وحفظ دينه من التضييع والتبديل ، بأن يحفظ أوامره التي أوجبها ، ونواهيه التي حرمها ، فيقف عند أوامره بالامتثال ، وعند نواهيه بالاجتناب .

والوصية الثانية في وصيته الجامعة عليه الصلاة والسلام فهي :(احفظ الله تجده تجاهك) ومعنى تجاهك :مقابلك ، وهذه الكلمة توكيد للكلمة الأولى ومن ثم أوردها بلا عاطف ، لكمال الاتصال بينهما .

والمعنى أنك إذا حفظت حقوق الله وراقبته وجدت الله معك في كل الأحوال يهديك ويرعاك ويؤيدك .

والوصية الثالثة هي : (إذا سألت فاسأل الله) أي :إذا أردت أن تسأل شيئًا ، فاسأل الله دون غيره أن يعطيك إياه من فضله .

والوصية الرابعة :(وإذا استعنت فاستعن بالله) أي : إذا طلبت الإعانة على أمر من أمور الدنيا والدين ، فلا تنشد الإعانة إلا من الله تعالى ؛لأنه القادرعلى كل شيء .[1]

وأسلوب الأمر في هذه الوصايا الأربع (احفظ – فاسأل – فاستعن) الغرض منه النصح والارشاد للمسلمين .

(١) انظر دراسة أدبية لأحاديث نبوية مختارة ١٥٦ وما بعدها .

وجاءت المقابلة لتقوي المعنى وتؤكده بين قوله (سألت ،واستعنت) وبين (فاسأل ،فاستعن) .

وبعد ذلك انتقل الرسول عليه الصلاة والسلام إلى تعليم ابن عباس الأصل الذي عليه مدار هذه الوصايا جميعها ، والأساس الذي تدورعليه فقال :"واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ،وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيءقد كتبه الله عليك ."

هاتان الوصيتان هما أن مصدر النفع والضر في الحقيقة إنما هو الله عز وجل وهما اللتان تضمنهما الاسمان الجليلان (الضار والنافع) من أسمائه الحسنى .

وقد أكد الرسول– صلى الله عليه وسلم– بأسلوبه الحكيم هذا الأمر العظيم بقوله: (واعلم أن الأمة) حثًا على تعيين أن لانفع ولا ضرإلا من الله ، والمراد بالأمة هنا جميع الخلق .

والإيمان بهذه الحقيقة الكبرى يجعل الإنسان لايهاب عبدًا من العباد مهما كانت منزلتة ؛ لأن الله تعالى هو المعز المذل ، وبيده مقاليد الأمور كلها .

وقد أكد الرسول –صلى الله عليه وسلم – هذه الحقيقة في هذا الحديث بشتى أنواع المؤكدات :

منها المقابلة بين قوله : (لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك) وقوله (ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك) .

والمعنى أن النفع بيد الله وحده ، فلا نافع على الحقيقة إلا الله ، وفي المقابل فإنه وحده الذي يملك الضر .

وبعد ذلك بين الرسول –صلى الله عليه وسلم– قدم كتابة المقادير كلها والفراغ منها ، وأنه لاتغيير فيما جرى به القدر ،وحكم به القضاء فقال له :(رفعت الأقلام وجفت الصحف) أي تركت الكتابة بها ؛ لأنه كتب ما كان وما يكون إلى يوم القيامة ، ويبست كتابة الصحف ، وهذا كناية عن قدم تسجيل المقادير والانتهاء منها .

فلما عبر صلوات الله وسلامه عليه في الوصيتين السابقتين بالكتابة ، قضت البلاغة النبوية التي أعطى صاحبها جوامع الكلم ، أن يعبر عن هذه الوصية بالأقلام ورفعها ، والصحف وجفافها ، وهذه كناية عن أقضية الله تعالى الأزلية ، وأحكامه التي حكم بها في علمه القديم ، أقضية مسجلة ، وأحكام ثابته لايعتريها تغيير ولايمسها تحويل[١] .

****

(١) دراسة أدبيه لأحاديث نبوية مختارة١٦٨ بتصرف .

الدنيا والآخرة

عن أنس : أن النبي –صلى الله عليه وسلم – قال :" مَنْ كَانَتْ نِيَّتُهُ طَلَبَ الْآخِرَةِ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِيقَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتْ نِيَّتُهُ طَلَبَ الدُّنْيَا جَعَلَ اللَّهُ الْفَقْرَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَشَتَّتَ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَلَا يَأْتِيهِ مِنْهَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ."(١)

****

المفردات والأساليب :

{من كانت نيته} أي : قصده الأصلي في الأمر العلمي والعملي .

{طلب الآخرة} أي : مرضاة مولاه .

{ جعل الله غناه في قلبه } أي : جعل الله قلبه غنيًا بأن جعله قانعًا بالكفاف، ولا يتعب نفسه في طلب الزيادة ، فهذا هو الغنى الحقيقي .

{ وجمع له شمله } الشمل : ضد التفرق ، يعني : جعله الله مجموع الخاطر، وهيأ أسبابه من حيث لا يدري .

{ وأتته الدنيا } أي : ما قدر وقسم له منها ، والواو في (وهي) للحال .

{ راغمة } أي : ذليلة تابعة له ، لا يحتاج في طلبها إلى سعي كثير ، بل تأتيه هينة لينة على رغم أنفها وأنف أربابها .

وقيل : تقصده الدنيا طوعا وكرها ، يعني حصل له من الدنيا ما يحتاج إليه.

---

(١) سنن الترمذي أبواب صفة القيامة والرقائق والورع حديث رقم (٢٤٦٥) شعب الإيمان للبيهقي فصل في الزهد حديث رقم (٩٨٥٥).

{ومـن كانـت نيتـه طلـب الـدنيا جعـل الله الفقـر} : أي جـنس الاحتيـاج بـين عينيه.

{وشتت }: بتشديد التاء الاولـى ، أي فرق عليه امره ،{ ولا يأتيه منها} : أي من الدنيا .

{إلا ما كتب لـه} : وهو راغم فلا يأتيه ما يطلب من الزيادة على رغم أنفه وأنف أصحابه [1]

****

المعاني والتصوير:

تأمل هذه الكناية اللطيفة في قوله : (من كانت نيته طلب الآخرة) حيث كنى عن ارادته وتفضيله للآخرة بنيته طلب الآخرة .

وكنى عن القناعة والرضا بـ (غناه في قلبه) وكنى عن تيسير أموره كلها مجتمعة بقوله : (وجمع له شمله) .

وقوله :(وأتته الدنيا وهي راغمة) استعارة مكنية ،حيث شبه الدنيا بالمرأة التي تأتي إليه راغمة .

فمن رضي بماهو عليه وشكر الله على ما وهب قليلًا او كثيرًا ، وأراد الآخرة، وفضلها على الدنيا ، رزقه الله طمأنينة القلب والرضا والقناعة ، وراحة النفس، ويسر له أمور الدنيا كلها .

وقوله : (ومن كانت نيته طلب الدنيا) كناية عن حبه الدنيا وتفضيلها ، وقوله : (جعل الله الفقر بين عينيه) كناية عن الاحتياج إلى الخلق ، وعدم

(١) انظر المفاتيح في شرح المصابيح ٥/ ٣١٥ ، مرقاة المفاتيح ٨/٣٣٣٤ .

الرضا والقناعة ، فهو دائم السؤال ، وقوله : (وشتت عليه أمره) كناية عن حالة التخبط والاضطراب والحيرة التي يعيش فيها .

قال الطيبي –رحمه الله تعالى–يقال : " جمع الله شمله أي: ما تشتت من أمره، وفرق الله شمله أي ما أجتمع من امره، فهو من الأضداد، والحديث من باب التقابل والمطابقة، فقوله: (جعل الله غناه في قلبه)، مقابل لقوله: (جعل الله الفقر بين عينيه)، وقوله: (جمع الله شمله)، مقابل لقوله (وشتت عليه أمره)، وقوله: (وأتته الدنيا وهى راغمة) لقوله: ولا يأتيه منها إلا ما كتب له، فيكون معنى الأول: وأتاه ما كتب له من الدنيا وهى راغمة، ومعنى الثاني: وأتاه ما كتب له من الدنيا وهو راغمٌ " (١)

فالحديث يدعو إلى طلب الآخرة للمحافظة على الطمأنينة التي تلزم القناعة وراحة البال التي ترمي إليها، ولتحاشي الانهماك في طلب الدنيا، وحصر كل الهم في ذلك، واشتغال الفكر به، لأن كل شئ بقدر الله

****

(١) الكاشف عن حقائق السنة ٣٣٧٢/١١.

الرياء والسمعة

عن أبـي هريرة قـال: قـال رسول الله صـلى الله عليـه وسلم " يَخْرُجُ فـي آخرِ الزمـانِ رجـالٌ يَخْتِلُون الدنيا بالدينِ، يَلْبَسون للنـاسِ جُلُودَ الضَّـأْنِ مِن اللِّينِ، ألسنتُهم أحلـى مِن السُّكَّرِ، وقلوبُهم قلوبُ الذِّئابِ، يقولُ اللهُ: أَبِـي يَغْتَرُّون! أم علـيَّ يَجْتَرِئُـون! فَبِـي حَلَفْتُ لأَبْعَثَنَّ علـى أولئك مـنهم فتنـةً تَدَعُ الحَلِيمَ فيهم حيرانًا."[1]

المفردات والأساليب:

قولـه: (يختلـون الـدنيا بالـدين) ، (والختـل): الخـداع، وهـو أن يعمـل الرجـل عملًا وفي نيته غيرُ عمله؛ ليغرّر أحدًا، وتقدير هذا الكلام يختلون أهل الدنيا بعمـل الـدين؛ يعنـي: يعملـون الأعمـال الصـالحة ليعتقد النـاس فـيهم الخيـر والصـلاح ويظنوهم العلماء؛ ليدفعوا إليهم الأموال وليخدموهم، وليس في نيتهم إخلاص، بل جذب المال والجاه .

(يلبسون للناس جلود الضأن)؛ يعنـي: يلبسون اللباس من الصـوف، ليظنهم النـاس زهـادًا عبَّـادًا تـاركين الـدنيا، لـبس الصـوف إن كـان بهـذه النيـه فهـو مذموم، وإن كان من الفقراء، أو لكسر النفس وغير ذلك فهو جائز.

(من اللين ، ألسنتهم أحلى من السكر) أراد ب (اللين): التملّق والتواضـع في وجوه الناس؛ ليصير الناس لهم ، مريدين .

(وقلوبهم قلوب الذئاب)؛ يعني قلوبهم شديدة مسودةٌ غاية حب الدنيا وحب الجاه، وكثرة العداوة والبغض والصفات المذمومة الثابتة في قلوبهم.

---

(١) شعيب الإيمان للبهيقي فصل اخلاص العمل لله عز وجل وترك الرياء رقم (٦٥٥٧).

(أبـي يغتـرون أم علـيّ يجترئـون) الهمـزة فـي (أبـي) للاسـتفهام ، والاغتـرار: الانقياد، من غرّك؛ يعني يمكر بك مكرًا وأنت لا تعلم وتظنه صديقًا نصوحًا، والمراد بالاغترار هنا: عدم الخوف من الله، وترك التوبة من فعلهم القبيح.

(والاجتـراء): الانبسـاط والتشـجُّع، يعنـي: الـذين يختلـون الـدنيا بالـدين، لا يخافونني، ويجترئون عليَّ بمكرهم الناس في إظهار الأعمال الصالحة.

(فبي حلفت): الباء للقسم؛ يعني: يقول الله تعالى: حلفتُ بعظمتي وكبريائي لأبعثن عذابًا على هؤلاء . (تدع): أي: تترك ،(الحليم): العاقل .

(حيران): يعني لا يقدرالعاقل وذو تجربة وجلادة على دفع ذلك العذاب[1]

المعاني والتصوير:

أولئك هم المراءون الذين يبطنون ما لا يظهرون، فيكون في ظاهرهم الرحمة وفي باطنهم العذاب، ويسمع الناس منهم كلامًا معسولًا يخدعهم، يجعلونه كحبالة الصياد تفرش للحب، ولفظ الختل يدل على خداعهم ، وهو واقع على الدنيا والدين في مكان أداته.

ومعنى ذلك أنهم جعلوا الدنيا بأهلها صيدًا، وجعلوا الدين أداة يخدعون بها الصيد، لأنهم يقولون في اللغة ختل الذئب الصيد: تخفى له فهو خاتل.

فعبارة الحديث " يختلون الدنيا بالدين" كناية عن فقد قلوبهم ما أجادوا التظاهر به، والمعنى الظاهر يؤكد هذا المعنى مرة أخرى وبصورة أخرى هى أقرب من التقرير لارتباطها بالحس.

أرأيت إلى قطيع الشاه يسرح أمنًا وديعًا خلف الراعي؟

(١) انظر المفاتيح في شرح المصابيح ٣١٦/٥ وما بعدها.

أرأيت الى كثافة الصوف على جلده يخب فيه من اللين؟

لقد فتكوا بالضأن ليلبسوا جلودها فيخدعوا الناس بلونها، هل يلبسون جلود الضأن تقشفًا وورعًا، وهضم نفس ووداعة؟

لا ..... إنما يلبسون للناس لا لأنفسهم.

هل يلزم من تصورك تلك الصورة إلا النفاق والرياء والخديعة وأنهم ذئاب في صورة الخراف.

هذا هو المعنى الذي تكرر في الجملة الثالثة بصورة أوضح في تشبيه القلوب تستتر بجلد الضأن لتخدع وتفتك"[١]

وقوله:" (يلبسون للناس جلود الضأن) كناية عن إظهار التمسكن والتلين مع الناس، وما أحسن التطابق بين القولين: أعني هذا وقوله: (وقلوبهم قلوب الذئاب)[٢] ."

وقوله صلى الله عليه وسلم (ألسنتهم أحلى من السكر، وقلوبهم قلوب الذئاب) فقد شبه ألسنتهم بالسكر في الحلاوة، وقلوبهم بالذئاب في المكر والخديعة، وهذا التشبيه يصور الرياء والنفاق والخديعة في هؤلاء الرجال.

وقوله: (أبي يغترون؟ أم علي يجترئون؟) الاستفهام إنكاري (وأم) منقطعة، أنكر أولًا اغترارهم بالله وبإهماله إياهم حتى أغتروا، ثم أضرب عن ذلك، وأنكر عليهم ما هو أعظم منهم وهو أجتراؤهم على الله.[٣]

---

(١) الحديث النبوي رؤية فنية جمالية ٧٢ وما بعدها.

(٢) الكاشف عن حقائق السنن ٣٣٧٢/١١.

(٣) انظر المرجع السابق ٣٣٧٢/١١.

وقوله صلى الله عليه وسلم (فبي حلفت: لابعثن على أولئك فتنة تدع الحليم فيهم حيران)

" يؤكد الله القسم على أن يجازيهم جزاء لايدري كنهه، ويعذبهم عذابًا لا يحاط به، عبر بالكناية التي يسبح خلفها العقل والخيال معًا؛ حيث لاوصول إلى تحديد (فتنة تذر الحليم فيه حيران) ، الفتنة هنا نكرة في مقام التهويل والترهيب، وما أعظمها فتنة، ثم هى موصوفة بالجملة الفعلية وضميرها قد اسند إليه الفعل المتعدي إنذارا بالخطورة.(١)

وقد وقعت الحيرة على الحليم العاقل المتأمل، ووصفها بالألف والنون عدولًا عن حائر يدل على اللزوم، وهذا للمبالغة في شدة وفظاعة الفتنة.(٢)

****

(١) الحديث النبوي رؤية فنية جمالية ٧٣.

(٢) المرجع السابق ٧٣ بتصرف.

فضل الفقراء

عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :"تَعِسَ عبدُ الدِّينَارِ، وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ، وَعَبْدُ الخَمِيصَةِ، إنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وإنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وإذَا شِيكَ فلا انْتَقَشَ، طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بعِنَانِ فَرَسِهِ في سَبيلِ اللَّهِ، أَشْعَثَ رَأْسُهُ، مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ، إنْ كانَ في الحِرَاسَةِ، كانَ في الحِرَاسَةِ، وإنْ كانَ في السَّاقَةِ كانَ في السَّاقَةِ، إنِ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ له، وإنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ" [1] رواه البخاري

****

المفردات والأساليب:

(تعس) أي : هلك وسقط على وجهه.

(عبد الدينار) أي: الحريص على جمع الدنيا، والمعنى: أنه خاب وخسر وتعرض للهلاك من استعبده المال وأخذ بمجامع قلبه.

(الخميصة) : كساء أسود مربع له علامان، وأراد بعبد الخميصة: من يحب كثرة الثياب النفيسة، ويحرص على التجمل فوق قدر الحاجة.

(انتكس): انقلب وصار أعلاه أسفله وأسفله أعلاه.

(وإذا شيك) : أصابه الشوك، أي: أدخل الشوك في جسده. (فلا انتقش) أي: فلا أخرج الشوك منه .(أشعث) الأشعث: هو المغبر الرأس.

(مغبرة فدماه) أي صارت ذا غبار من كثرة المشي على التراب.

---

(١) صحيح البخاري كتاب الرقاق حديث رقم (٦٤٣٥) شعب الإيمان للبيهقي فصل في الزهد حديث رقم (٩٩٠٤).

(إن كان في الحراسة) يعني: إن كان في حراسة الجيش كان شغله ذلك.

(وإن كان في الساقة) أي: يمشي خلف الجيش.

(الساقة) : الجماعة المتأخرة من الجيش؛ يعني يكون مشغولًا بالخيرات.

(إن استأذن لم يؤذن له) يعني: لا يخالط الناس، ولا يجعل نفسه مشهورة بل لا يعرف الناس، حتى لو استأذن في دخول الدار أو مجلس لم يؤذن له من قلة قدره عند الناس.(١)

المعانى والتصوير:

الحديث يحدثنا عن حب العبد للدنيا وجمع المال، وتركه الآخرة، وقد صور الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك في أجمل عرض، وأقوى بيان، ليحرك نفوس المؤمنين للعمل للآخرة.

فقال: (تعس عبد الدينار، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة) أي: " خاب وخسر وتعرض للهلاك من استعبده المال وأخذ بمجامع قلبه.(٢)

فقد أصبح هذا الانسان عبدًا للمال يأمره وينهاه، فيطيع كما يفعل العبد مع سيده، ولا يخفى ما في ذلك من الذل والخسران.

قال الطيبي: " خص العبد بالذكر ليؤذن بانغماسه في محبة الدنيا وشهواتها، كالأسير الذي لا خلاص له عن اسره، ولم يقل: مالك الدنيا ، أو جامع الدنيا؛لأن المذموم من الدنيا الزيادة على قدر الحاجة لا قدر الحاجة"(٣)

---

(١) انظر المفاتيح في شرح المصابيح ٢٧٥/٥ وما بعدها، الكاشف عن حقائق السنن ٣٢٧٤/١٠.

(٢) تحفة الأبرار في شرح مصابيح السنن ٢٨٧/٣.

(٣) الكاشف عن حقائق السنة ٣٢٧٤/١٠.

وتأمل الكناية في قوله : (عبد الدينار ، عبد الدرهم ، عبد الخميصه) حيث كنى بهم عن حب الدنيا والانشغال بها وهي كناية عن صفة .

وقوله : (إن أعطى رضى ، وإن لم يعط سخط) يؤذن بشدة حرصه في جمع الدنيا وجعله عبدًا لها ، وشغفه في أيدي الناس .[١]

وتأمل الصورة التي رسمتها المقابلة الرائعة بين قوله : (إن أعطى رضى) وبين (وإن لم يعط سخط) فقابل بين (أعطى ، ولم يعط) و (رضى وسخط) .

وقد شاركت ألفاظ الحديث الموحية المختارة في تصوير المعاني أبدع تصوير وأروعه فقال : (تعس و انتكس) ، (تعس) أي : عثر وانكب بوجهه ، وهو دعاء عليه بالهلاك ، و(انتكس)أي : انقلب على رأسه ، وهو دعاء عليه بالخيبة ، (واذا شيك فلا انتقش) ، أي : فلا أخرج الشوك منه ، " فهذه الكلمات دعاء من النبي –صلى الله عليه وسلم – على من ترك عمل الآخرة واشتغل بجمع أموال الدنيا ؛ يعني : من كانت هذه صفته ، صار ذليلًا ، وإذا أصابه غمٌ وجراحةٌ ما أزال الله عنه ذلك الغم " [٢]

وفي قوله : (تعس وانتكس) " صيغة الترديد[٣] مع الترقي ، أعاد (تعس) الذي هو الانكباب على الوجه ، ليضم معه (الانتكاس) الذي هو الانقلاب على الرأس ، ليترقى في الدعاء عليه من الأهون إلى الأغلظ ثم ترقى منه

---

(١) انظر الكاشف عن حقائق السنن ٣٢٧٥/١٠ ، شرح القسطلاني ٢٤٩/٩

(٢) المفاتيح في شرح المصابيح ٢٧٥/٥

(٣) الترديد : لون من ألوان الروابط اللفظية ، ترى فيه الكلمة الواحدة تنعطف يمينًا ، فتتصل بمعنى ، ثم تنعطف شمالًا فتذكر مرة أخرى متعلقة بمعنى آخر – علم البديع ٣٢٤ .

إلى قوله : (وإذا شيك فلا انتقش) على معنى أنه إذا وقع في البلاء فلا يترحم عليه " [1]

وقد ذكر الرسول –صلى الله عليه وسلم – نموذج آخر للانسان فقال : " طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه اشعث رأسه ، مغبرة قدماه " تأمل روعة البيان في أجمل صورة يصورها الرسول –صلى الله عليه وسلم – صورة الرجل المجاهد في سبيل الله ، الآخذ بعنان فرسه ، الاشعث الرأس ، المغبرة قدماه.

وهي كناية عن الجهاد بصدق ، ابتغاء مرضات الله وقوله : (اشعث الرأس) كناية عن انشغاله بالجهاد ، فلا يكون عنده فراغ لغسل رأسه ، (ومغبرة قدماه) كناية عن كثرة المشي على التراب في أثناء المعركة .

وصور آخرى للتأكيد على صدقه وإخلاصه في الجهاد في سبيل الله : (إن كان في الحراسة) ، أي : إن كان في حراسة الجيش كان شغله ذلك فجاء بالتكرار (كان في الحراسة) لتأكيد على ذلك .

(وإن كان في الساقة) ، أي : يمشي خلف الجيش في المؤخرة ، وجاء أيضًا بالتكرار (كان في الساقة) للتأكيد على إنشغاله بأمور الجيش .

والشرط في الحالتين يفيد أنه يفعل ما يوكل إليه من عمل بصدق وإخلاص ، إبتغاء مرضات الله ، سواء كان في الحراسة أو في الساقة .

وعطفت جملة (وإن كان في الساقة) على جملة (إن كان في الحراسة) للتوسط بين الكمالين ؛ لأن بين الجملتين إتفاقًا في الخبرية لفظًا ومعنى ، ولا يوجد مانع من العطف .

---

(١) الكاشف عن حقائق السنن ٣٢٧٥/١٠ .

وتأمل قوله –صلى الله عليه وسلم– (إن استأذن لم يؤذن له) تجد كناية عن قلة قدره عند الناس ، فهذا العبد لا يخالط الناس ولا يسعى للشهرة ، فلا يعرفه الناس ، حتى لو استأذن في دخول المجلس لم يؤذن له ، وكذلك (وإن شفع لم يشفع له) .

وقيل : قوله : (إن استأذن لن يؤذن له) وقوله : (وإن شفع لم يشفع له)

" قد تقرر في علم المعاني : أن الشرط والجزاء إذا اتحدا دل على فخامة الجزاء وكماله ، والشريطتان مؤكدتان للمعنى السابق ، فإن قوله (آخذ بعنان فرسه) يدل على اهتمامه بشأن ما هو فيه من المجاهدة في سبيل الله ، فعلى هذا هذه القرينه إلى آخرها جاءت مقابلة للقرينة الأولى ، فدلت الأولى على إهتمام صاحبها بعيش العاجلة ، والثاتية على اهتمام صاحبها بعيش الآجلة "[1]

وجاءت المقابلة لتأكيد المعنى في قوله : (إن استأذن لم يؤذن له)

وقوله : (وإن شفع لم يشفع له) بين : إن استأذن ، وإن شفع ، وبين: لم يؤذن له ، لم يشفع له .

****

(١) الكاشف عت حقائق السنن ٣٢٧٥/١٠ .

زهرة الدنيا

عن أبي سعيد الخدري : أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : "إِنَّ مِمَّا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي مَا يُفْتَحُ عَلَيْكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا». فَقَالَ رجلٌ: يَا رَسُول الله أَوَ يَأْتِي الْخَيْرُ بِالشَّرِّ؟ فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ يُنَزَّلُ عَلَيْهِ قَالَ: فَمَسَحَ عَنْهُ الرُّحَضَاءَ وَقَالَ: «أَيْنَ السَّائِلُ؟». وَكَأَنَّهُ حَمِدَهُ فَقَالَ: «إِنَّهُ لَا يَأْتِي الْخَيْرُ بِالشَّرِّ وَإِنَّ مِمَّا يُنْبِتُ الرَّبِيعُ مَا يَقْتُلُ حَبَطًا أَوْيُلِمُّ إِلَّا آكِلَةَ الْخَضِرِ أكلت حَتَّى امتدت خاصرتاها اسْتقْبلت الشَّمْسِ فَثَلَطَتْ وَبَالَتْ ثُمَّ عَادَتْ فَأَكَلَتْ. وَإِنَّ هَذَا الْمَ الَخَضِرَةٌ حُلْوَةٌ فَمَنْ أَخَذَهُ بِحَقِّهِ وَوَضَعَهُ فِي حَقِّهِ فَنِعْمَ الْمَعُونَةُ هُوَ وَمَنْ أَخَذَهُ بِغَيْرِ حَقِّهِ كَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ وَيَكُونُ شَهِيدًا عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" (١)

****

المفردات والأساليب :

(الزهرة) : بفتح الزاي وسكون الهاء مأخوذة من زهرة الشجر وهو نورها بفتح النون ، والمراد بها ما فيها من أنواع المتاع والعين والثياب والزروع وغيرها مما بفتخر الناس بحسنه مع قلة البقاء.

(الرحضاء) : العرق الذي يظهر للنبي عند نزول الوحي عليه .

(الربيع) : قيل : هو النهر الصغير المتفجر من النهر الكبير كما في القسطلاني .

(ما يقتل حبطًا): أي يهلك من كثرة تناوله .

(١) صحيح البخاري كتاب الرقاق حديث رقم (٦٤٢٧) ومسلم كتاب الزكاة حديث رقم (١٠٥٢) شعب الإيمان فصل في الزهد حديث رقم (٩٨٠٨) .

يقال : حبطت حبطًا – بالفتح – إذا أصابت مرعى طيبًا ، فأفرطت في الأكل حتى انتفخت بطنها ، فهلكت .

(أو يلم): أي يكاد أن يقتل .

(ألاآكلة الخضر) : الخضر : بالكسر : الطري الغض من النبات ، بمعنى أخضر .

(الخضرة): البقلة الغضة .

(عين الشمس) : ذاتها : أي توجهت إلى مسقط ضوئها ، واستراحت فيه .

(فثلطت): أي بالت وتغوطت ، يقال : ثلطت الشاة إذا ألقت بعرها .[1]

المعاني والتصوير :

المعادلة الصعبة في الحديث الشريف جاءت في قول النبي – صلى الله عليه وسلم – " إن مما أخاف عليكم من بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها " حين تقبل الدنيا على الناس بالخير والمال الوفير ، والعقارات وأرصدة البنوك وغيرها من متاع الغرور وزينة الدنيا وفتنتها ، لذلك تعجب السائل من خوف النبي – صلى الله عليه وسلم – من هذا الخير لأمته ، فقال معترضًا : " أو يأتي الخير بالشر يا رسول الله ؟ " [2] .

فقوله : " أو يأتي الخير بالشر يارسول الله ؟ " الهمزة للاستفهام ، والواو عاطفة على شيء مقدر ، أي أتصير النعمة عقوبة ؛ لأن زهرة الدنيا نعمة

(١) أنظر فتح الباري ٣٤٦/١١ ، الكوكب الوهاج ١٨٠/١٢ ، شرح القسطلاني ٢٤٥/٩ .

(٢) انظر التصوير النبوي للقيم الخلقية والتشريعية ١/ ١٥٠ .

من الله فهل تعود هذه النعمة نقمة ، وهو استفهام استرشاد لا إنكار ، والباء في قوله " بالشر " صلة ليأتي : أي : هل يستجلب الخير الشر .[١]

وقوله : " فمسح عنه الرحضاء " ، كناية عن فراغه من تلقي الوحي ، فإنه عليه الصلاة والسلام كان تأخذه الرحضاء ، وهي : عرق الحمى ، كأنها ترحض الجسد ، أي : تغسله عند اشتداد برحاء الوحي ، فإذا سري عنه مسحها . [٢]

وجاءت الإجابة عن السؤال قاطعة : قال – صلى الله عليه وسلم – في بلاغة ونصاعة حجة مؤكدًا قوله : (بإن) فقال : " إنه لا يأتي الخير بالشر " وقبل ذلك سأل عن السائل بطريقة أوحت إلى الحاضرين بأنه يشكره على سؤاله ، ويثني كثيرًا على مداخلته فقال : " أين السائل ؟ " قال الراوي وكأنه حمده . [٣]

وقوله : " وإن مما ينبت الربيع " أي الجدول ، وإسناد الإنبات إليه مجازي ، والمنبت في الحقيقة هو الله تعالى . [٤]

وقيل الربيع هو الفصل المشهور بالإنبات من فصول السنة [٥] ، يعني أن ما يحصل من النبات في الربيع بتوالي أمطاره بإنبات الله تعالى . ففي الإسناد مجاز عقلي علاقته السببية .

---

(١) فتح الباري ٢٤٦/١١ ، انظر شرح القسطلاني ٢٤٥/٩ والكاشف عن حقائق السنن ٣٢٧٧/١٠ .

(٢) تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة ٢٨٨/٣ .

(٣) أنظر التصوير النبوي للقيم الخلقية والتشريعية ١ /١٥٠ .

(٤) فتح الباري ٢٤٧/١١ ، انظر شرح القسطلاني ٢٤٥/٩ .

(٥) الكوكب الوهاج ١٨٠/١٢ .

وقوله : " يقتل حبطًا أو يلم " ، (ألمَّ) : إذا نزل ، وألمَّ أيضًا : إذا قارب شيئًا ؛ يعني : مثال كثرة المال كمثال ما ينبت في فصل الربيع ، فإن بعض النبات حلوٌ في فم الدابة ، وهي حريصةُ على أكله ، ولكن ربما تأكل كثيرًا فيحصل بها داءٌ من كثرة الأكل ، فتموت من ذلك الداء أو تقرب من الموت.(١)

فقد "صور الرسول – صلى الله عليه وسلم – المال الحرام ،والكسب المنهي عنه سواء عن طريق تحصيله أو الإسراف فيه ، أو كنزه أو عدم إخراج حق المجتمع فيه ،صور ذلك في صورة محسة واقعية بليغة ، وذلك حينما ينبت فصل الربيع نباتًا غير صالح للمرعى ، يقتل الماشية أو يكاد ،وهو الحبط ومايقرب من ذلك فإذا أكلته الماشية ماتت لساعتها، أو مرضت ،وكادت أن تموت"،(٢) فقال النبى –صلى الله عليه وسلم– وإن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطًا أو يلم.

وقوله: (إلا آكلة الخضرة) والمعنى: " أن الدنيا مونقة تعجب الناظرين، فمنهم من يستكثر منها فتهلكه، كالماشية إذا استكثرت من المرعى حتى انتفخ بطنها وحبطت، وذلك مثل المسرف.

ومنهم من يقنع بما يحتاج إليه منها، ويتحاشى عن الإفراط في تناولها، فيكون محمود العاقبة كآكلة الخضر، وذلك المثل المقتصد."(٣)

" وقد صور الرسول –صلى الله عليه وسلم– المال الحلال والكذب المرغوب فيه ، سواء بالتحصيل أو بالاعتدال في إنفاقه، واستخراج حقوق المجتمع

(١) المفاتيح في شرح المصابيح ٢٧٦/٥

(٢) التصوير النبوى للقيم الخلقية والتشريعية ١٥٠/١.

(٣) تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة ٢٩٠/٣.

منه، أو باستغلاله فيما يعود على الأمة بالخير ،صور ذلك في صورة واقعية محسة بليغة ، وذلك حينما ينبت الربيع كلأً ومرعى خضرًا حلوًا ، تأكل منه الماشية وترعى فيه ، فتزداد نموًا وتربوا لحمًا، فتنعم بالعافية وتستقبل الشمس متمتعة، بحلاوة الأكل وجمال الطبيعة الساحرة، ودفء الشمس الواقي لها من المرض والعلل، فقال: " إلا آكلة الخضرة أكلت حتى إذا امتدت خاصرتها، استقبلت الشمس فاجترت وثلطت وبالت، ثم عادت فأكلت.[1] "

ومن تلك الصورة البليغة المحسة استنتج الحكم والنتيجة، حين مدح المال ومصادر الخير فيه فقال: (إن هذا المال خضرة حلوة فمن أخذه بحقه، ووضعه في حقه فنعم المعونة هو.)

فقوله: " (وإن هذا المال خضرة) أي حسن المنظر كالخضروات، حيث شبه المال بالخضروات في الانتفاع، وقوله (حلو) أي لذيذ المذاق كالحلاوة، حيث شبه المال بالحلاوة في اللذة والتمتع به.

وقيل: (إن هذا المال) " في الرغبة والميل إليه وحرص النفوس عليه كالفاكهة، (خضرة) في المنظر (حلوة) في الذوق[2] ."

قال ابن الانباري: "قوله: (المال خضرة حلوة) ، ليس هو صفة المال وإنما هو للتشبيه، كأنه قال المال كالبقلة الخضراء الحلوة"[3] ، أو أنث باعتبار ما

(١) انظر التصوير النبوي للقيم الخلقية والتشريعية ١٥١/١.
(٢) شرح القسطلاني ٢٤٥/٩.
(٣) فتح الباري لابن حجر ٢٤٦/١١.

يشتمل عليه المال من زهرة الدنيا، أو المراد بالمال هنا الدنيا لأنه من زينتها[١] .

وقوله: (فنعم المعونة) كالتذييل للكلام المتقدم، وفيه حذف تقديره: إن عمل فيه بالحق، وفيه إشارة إلى عكسه وهو بئس الرفيق هو لمن عمل فيه بغير الحق.[٢]

ثم يقرر حقيقة أخرى عندما يأتي الشر من الخير، إذا حصل عليه صاحبه من غير حقه، وأنفقه في غير حقه كالذي يأكل ولا يشبع، ويأتي عليه شاهدًا يوم القيامة.

قال : "ومن أخذه بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يشبع، ويكون شهيدًا عليه يوم القيامة."

فقوله: (كالذي يأكل ولا يشبع)" أي كذي الجوع الكاذب بسبب سقم، كلما ازداد أكلًا ازداد جوعًا وكان مآله إلى الهلاك."[٣]

فقد شبه من لا يقنع بما يأخذه من المال الحرام بالذي يأكل ولا يشبع، ووجه الشبه هو الاستمرار في فعل الشئ .

وذكر قوله (كالذي يأكل ولا يشبع) في مقابلة (فنعم المعونة هو).

وقوله: " ويكون شهيدًا عليه" أي حجة يشهد عليه بحرصه وإسرافه وإنفاقه بما لا يرضي الله، ويحتمل أن يشهد عليه حقيقة بأن ينطقه الله تعالى، ويجوز أن يكون مجازًا والمراد شهادة الملك الموكل به.[٤]

---

(١) شرح القسطلاني ٢٤٥/٩

(٢) فتح الباري لابن حجر ٢٤٨/١١.

(٣) شرح القسطلاني ٢٤٥/٩.

(٤) انظر فتح الباري ٢٤٧/١١-٢٤٨

قال ابن المنير : في هذا الحديث وجوه من التشبيهات بديعة :

١ – تشبيه المال ونحوه بالنبات وظهوره .

٢– تشبيه المنهمك في الاكتساب والأسباب بالبهائم المنهمكة في الأعشاب .

٣– تشبيه الاستكثار منه والادخار له بالشره في الأكل والامتلاء منه .

٤– تشبيه المال مع عظمته في النفوس حتى أدى إلى المبالغة في البخل بما تطرحه البهجة من السلح ، ففي إشارة بديعة إلى استقذاره شرعًا ، وفيه إشارة إلى إداركها لمصالحها .

٥– وتشبيه موت الجامع المانع بموت البهجة الغافلة عن دفع ما يضرها .

٦ – وتشبيه المال بالصاحب الذي لا يؤمن أن ينقلب عدوًا ، فإن المال من شأنه أن يحرز ويشدّ وثاقه حبًا له ، وذلك يقتضي منعه من مستحقيه فيكون سببًا في عقاب مقتنيه .

٧– وتشبيه آخذه بغير حق بالذي يأكل ولا يشبع . (١)

هذا الحديث لوحة فنية رائعة اتخذت عناصرها من الواقع والطبيعة بخيال هادف وفيه :

١– التنبيه على أن زهرة الدنيا ينبغي أن يخشى سوء عاقبتها ، وشر فتنتها من فتح الله عليه الدنيا ويحذر التنافس فيها ، والطمأنينة إلى زخرفها الفاني .

٢– النهي عن الكسب الحرام والاستيلاء على المال بغير حق .

٣– النهي عن الإسراف في المال وإنفاقه فيما ليس ضروريًا .

٤– الحث على انفاق المال الحلال والكسب الطيب في حقه . (٢)

---

(١) شرح القسطلاني ٢٤٦/٩

(٢) انظر التوضيح لشرح الجامع الصحيح ٤٢٢/٢٩ ، التصوير النبوي للقيم الخلقية ١٥١/١

الفرق بين الإسلام والإيمان

عن ابن عمر قال : صعد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – المنبر فنادى بصوت رفيع فقال : " يَامَعْشَرَ مَنْ أَسْلَمَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يُفْضِ الإِيمَانُ إِلَى قَلْبِهِ، لَا تُؤْذُوا المُسْلِمِينَ وَلَا تُعَيِّرُوهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ تَتَبَّعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ المُسْلِمِ تَتَبَّعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ تَتَبَّعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ رَحْلِهِ".[١]

المفردات والأساليب :

(رفيع) : أي عالٍ

(ولم يفض) : من الإفضاء أي : لم يصل

(التعيير) : التوبيخ والتعييب

(تتبع) : الشئ تطلبه متتبعًا له

(العورة) : سوءة الانسان وكل ما يستحيا منه

(الرحل) مسكن الرجل وما يستحبه من الأثاث . [٢]

****

(١) سنن الترميذي باب ماجاء في تعظيم المؤمن حديث رقم (٢٠٣٢) الآداب للبيهقي باب ترك الغيبة وتتبع عورات المسلمين حديث رقم (١١٧) وشعب الإيمان للبيهقي حديث رقم (٩٢١٣)

(٢) انظر مختار الصحاح مادة (ع ي ر – ت ب ع – ع و ر – ر ح ل)مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٣١٥٧/٨

المعاني والتصوير :

قوله : " يا معشر من أسلم بلسانه ولم يفض الإيمان إلى قلبه " هو من قوله تعالى : قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ " {الحجرات ١٤}

" فالإسلام غير الإيمان والفرق بينهما شاسع ، وشتان بين التصديق الظاهري في الجوارح وبين الإيمان القلبي الذي يقرن القول بالفعل " . (١)

وقد بدأ الرسول – صلى الله عليه وسلم – بالنداء لشد الإنتباه فقال : (يا معشر من أسلم بلسانه) ثم نفى عنهم الإيمان فقال : (ولم يفض الإيمان إلى قلبه) " إشارة إلى أنه ما لم يصل الإيمان إلى القلب لم يحصل له المعرفة بالله ولم يؤد حقوقه " .(٢)

وتأمل جمال المقابلة بين الجملتين (الإسلام والإيمان ، و اللسان والقلب) وهي تأكد المعنى وتقويه فالإسلام غير الإيمان .

وقد اشتمل الحديث على بعض الأفعال التي نهى عنها الرسول الكريم– صلى الله عليه وسلم – ، وعلينا أن نقف عندها لنتبين حقيقتها والهدف منها.

فجملة (لا تؤذوا المسلمين) جملة إنشائية (انشاء طلبي) والغرض من هذه الجملة النصح والارشاد

ومثلها الجمل الأخرى (ولا تعيرهم) (ولا تتبعواعوراتهم)، فالمعنى صريح في أن الإسلام عبارة عن مجموع التصديق والأعمال الصالحة، كأنه قيل: يا من أفرد الإسلام ولم يضم له التصديق! لا تؤذ من جمع بينهما، والمعنى لا

(١) التعبير الفني في القرآن الكريم ١٨٨

(٢) مرقاة المفاتيح في شرح مشكاة المصابيح ٨ /٣١٥٧

تؤذوهم فيما ظهر منهم مما ترونه عيبًا عليهم بالقول والفعل، فلا تغتابوهم ولا تشتموهم ولا تضربوهم، ولا تعيرهم على ما تابوا عليه، ولا تجسسوا عليهم.(١)

ثم جاء التهديد والوعيد من الرسول –صلى الله عليه وسلم – لمن يتبع عورة أخيه، فقال في بلاغة مؤكدًا قوله (بإن) " فإنه من يتبع عورة أخيه المسلم يتبع الله عورته".

وقوله: (من يتبع عورة أخيه المسلم) ، أي من يسعى لكشف عيوب أخيه المسلم.

(يتبع الله عورته) يكشف ستره ويظهر عيوبه، وهذا على سبيل المشاكلة.(٢)

" ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله"، أي يكشف عيوبه ولو كان في وسط منزله مخفيًا من الناس والتكرير في قوله " ومن يتبع الله عورته" للتأكيد والتهديد والوعيد.

وقوله: " ولو في جوف رحله" كالتتيم للكلام السابق للمبالغة فيه.(٣)

(١) انظر الكاشف عن حقائق السنن ٣٢١٦/١٠.

(٢) المشاكلة: هى ذكر الشئ بلفظ غيره لوقوعه في صحبنه تحقيقًا أو تقديرًا بغية الإيضاح ٢٢/٤.

(٣) انظر الكاشف عن حقائق السنن ٣٢١٧/١٠.

المنفق والبخيل

عن أبى هريرة قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " مَثَلُ الْبَخِيلِ وَالْمُنْفِقِ؛ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُنَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ، قَدِ اضْطُرَّتْ أَيْدِيهِمَا إِلَى ثُدِيِّهِمَا وَتَرَاقِيهِمَا، فَجَعَلَ الْمُتَصَدِّقُ كُلَّمَا تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ انْبَسَطَتْ عَنْهُ حَتَّى تُغَشِّيَ أَنَامِلَهُ وَتَعْفُوَ أَثَرَهُ، وَجَعَلَ الْبَخِيلُ كُلَّمَا هَمَّ بِصَدَقَةٍ قَلَصَتْ وَأَخَذَتْ كُلُّ حَلَقَةٍ مَكَانَهَا"(١) متفق عليه.

المفردات والأساليب:

(مثل البخيل والمنفق) أي صفتهما (كمثل رجلين عليهما جُنَّتان) ، (جُنَّتان) ، بضم الجيم وتشديد النون أي: وقايتان من حديد،ويروى بالباء الموحدة، وكذا في شرح السنة روى بها، وقيل الصحيح هنا (جنتان وليس جبتان) .

وقيل: (الجُنَّة) بالضم ما استترت به من سلاح، والمراد هنا درعان شُبه بهما صفتا البخل والتصدُّق اللتان جبل الانسان عليهما.

(قد اضطرت أيديهما) بضم الطاء أي: شُدَّت وعصرت وضحت وألصقت.

(إلى ثديها) بضم الثاء وسكون الدال جمع الثدى، ويعني بها جنبي الصدر.

(تراقيها) بفتح التاء جمع الترقوة وهو أسفل الكتف وفوق الصدر.

(فجعل المتصدق) أي: طفق وشرع وأراد.

(كلما تصدق بصدقةٍ) أي: هم يتصدق

(انبسطت) أي: توسعت جُنَّتهُ

---

(١) صحيح البخاري كتاب الزكاة حديث رقم (١٤٤٣) ومسلم كتاب الزكاة حديث رقم (١٠٢١) وشعب الإيمان للبهيقي فصل فى الزهد حديث رقم (١٠٣٣٣).

(وجعل البخيل كلما هم بصدقة) أي: قصد إليها وعزم عليها.

(قلصت) بفتح اللام أي: انضمت والتصقت جنته عليه

(وأخذت كل حلقة بمكانها) اشتدت والتصقت الحلق بعضها ببعض والباء زائدة أي: ضاقت غاية التضيق.(١)

المعاني والتصوير:

والمعنى أن الجواد إذا اهَمّ بالصدقة اتسع لذلك صورة وطاوعته يداه، فامتدتا بالعطاء، والبخيل يضيق صدره وتنقبض يداه عن الإنفاق.(٢)

قال الخطابيّ: " هذا المثلُ ضربه النبي –صلى الله عليه وسلم –للبخيل والمتصدق، فشبهها برجلين أراد كل واحد منهما أن يلبس درعًا يستتر به من سلاح عدوه، فصبها على رأسه ليلبسها، والدروع أول ما تقع على الصدر والثديين إلى أن يدخل الإنسان يديه في كميها، فجعل المنفق كمن لبس درعًا سابغًة،فاسترسلت عليه حتى سترت جميع بدنه.

وجعل البخيل كمثل رجل غلت يداه إلى عنقه، كلما أراد لُبْسها اجتمعت في عنقه، فلزمت ترقوته، وهو معنى قوله:" قلصت" أى: تضامت واجتمعت.

والمراد أن الجواد إذا هم بالصدقة انفسح لها صدره، وطابت نفسه، فتوسعت في الإنفاق، والبخيل إذا حدث نفسه بالصدقة، شحت نفسه، فضاق صدره ، وانقبضت يداه".(٣)

---

(١) انظر مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ١٣٢٠/٤، الكاشف عن حقائق السنن ١٥٢٤/٥.

(٢) انظر لمعات التنقيح في شرح مشكاة المصابيح ٣٢٣/٤ الكاشف ٠عن الحقائق السنن ١٥٢٥/٥.

(٣) فتح الباري ٣٠٧/٣، كوثر المعاني الدراري في كشف خبايا صحيح البخاري ٣١٧/١٢.

وقيل: هو تمثيل لنماء المال بالصدقة، والبخل بضده.

وقيل: ضرب المثل بهما لأن المنفق يستره الله بنفقته ويستر عورته في الدنيا والآخرة، كستر هذه الجنة لابسها، والبخيل كمن ليس جنة إلى ثدييه، فيبقى مكشوفًا ظاهرالعورة، ففتضحًا في الدارين.(١)

لماذا أوقع المتصدق مقابلًا للبخيل والمقابل الحقيقي السخي؟

"إيذانًا بأن السخاوة هى ما أمر به الشرع، وندب إليه من الإنفاق، لا ما يتعاناه المبذرون".(٢)

قال الطيبي:" وخص اليد بالذكر؛ لأن السخي والبخيل يوصفان ببسط اليد وقبضها، فإذا أريد المبالغة في البخل، قيل مغلولة يده إلى عنقه، وثديه وتراقيه، وإنما عدل عن الغل إلى الدرع لتصوير معنى الإنبساط والتقلص، والأسلوب من التشبيه المفرق شبه السخى الموفق إذا قصد التصدق يسهل عليه ويطاوعه قلبه بمن عليه الدرع، ويده تحت الدرع، فإذا أراد أن يخرجها منها وينزعها يسهل عليه، والبخيل على عكسه".(٣)

ويحث الحديث الشريف على جواز ضرب الأمثال، وتجسيم المجردات وتشخيص المعاني لتوضيحها ونفاذها إلى القلب والعقل والبصيرة.

فقد شبه الإنفاق والبخل – وهما من المعاني المجردة– بصورة مادية محسوسة بالثوب أو الدرع من الحديد، قد ينجي صاحبه من الهلاك إذا كان منفقًا، أو يكون سببًا في هلاكه والقضاء عليه إذا كان بخيلًا، وفي هذه

(١) انظر كوثر المعاني الدراري ٢١٨/١٢.
(٢) الكاشف عن حقائق السنن ١٥٢٥/٥.
(٣) الكاشف عن حقائق السنن للطيبي ١٥٢٥/٥.

الصورة القائمة على التمثيل المعنوي بالمحسوس، وتشبيه المتخيل بالمادي المحسس،ما يضفي على المعاني الكثيرة فيه جمال المبالغة مع الإيجاز وروعة البيان وسحره مع التركيزوالإيحاء؛ لأن النفس تتعلق بالمادي والمحسوس، ونفتتن به أكثر من المعنى المجرد لغموضه وإبهامه، فالمادي يدرك بجميع الحواس، وهى كثيرة مع العقل والعاطفة والوجدان، والمعنوي لا يدرك إلا بالعقل فقط، لذلك كان التجسيم للإنفاق والبخل في هذا الحديث الشريف أبلغ تصويرًا وأقوى بيانًا.

حيث عبر الحديث عن الإنفاق في صورة أدبية بليغة، تتكون من رجل لبس درعًا من الفولاذ أو الحديد، يحيط بصدره، كلما حرك نفسه بالجهاد وكثرة الإنفاق طال الدرع، حتى كان سابغًا على جميع بدنه، يشتمل عليه كله ليحفظه؛ وينجيه من الهلاك، ويزداد في حجمه كما وكيفًا ؛ فيزداد خيرًا ووفرة وبركة؛ وطهرًا وعمرًا ونسلًا وأولادًا.

وعبر عن البخل والشح في صورة أدبية محسة بليغة؛ تتكون من رجل لبس درعًا من الفولاذ أو الحديد، يحيط بصدره، فكلما امسك عن الإنفاق شحًا وبخلًا؛ أطبق بحلقاته وتلابيبه على صدره ممزقة، وعلى أنفاسه فأزهقها، وعلى روحه فخنقها، حتى يكاد أن يموت، فيحاول أن يوسعها فتزداد ضيقًا واختناقًا، حتى تزهق روحه، فيترتب على ذلك اكتناز المال وجموده، وهلاك النفس وتعذيبها، وحرمان الأولاد والناس ، والعزلة والبغض والكراهية.(١)

" فأنت ترى ظاهر الحديث، ولكن فنه العجيب في هذا الحديد الذي يراد به طبيعة الخير والرحمة في الانسان، فهى من أشد الطبائع جمودًا وصلابة

(١) انظر التصوير النبوي للقيم الخلقية ١/١٦٠-١٦١.

واستعصاء متى اعترضها حظوظ النفس الحريصة وأهواءها، ومع ذلك فإن السخاء بالمال يبسط منها وينتهى في الطبع إلى أن يجعلها لينة ، فلا تزال تمتد وتسبغ حتى يكون كمال طبع السخاء هو كمال طبع الخير في النفس الكريمة، فمن ألزم نفسه الجود والإنفاق راضها رياضة عملية كرياضة العضل بأثقال الحديد، ومعاناة القوة في الصراع ونحوه، أما الشُّحُّ فلا يناقض تلك الطبيعة، ولكنه يدعمها جامدة مستعصية لا تلين ولا تستجيب ولا تتيسر "[1] .

(١) السمو الروحي الأعظم والجمال الفني في البلاغة النبوية ١/٤٥.

عطاء الله للعبد

عن ابن مسعود –رضي الله عنه –قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : "إِنَّ اللَّهَ قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلَاقَكُمْ، كَمَا قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَرْزَاقَكُمْ، وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ، وَلَا يُعْطِي الدِّينَ إِلَّا لِمَنْ أَحَبَّ، فَمَنْ أَعْطَاهُ اللَّهُ الدِّينَ، فَقَدْ أَحَبَّهُ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يُسْلِمُ عَبْدٌ حَتَّى يَسْلَمَ قَلْبُهُ وَلِسَانُهُ، وَلَايُؤْمِنُ حَتَّى يَأْمَنَ جَارُهُ بَوَائِقَهُ."(١)

المفردات والأساليب :

(قسم) : قَسَمَهُ وقَسَّمَهُ جزأه ، والمعنى قدر بمقدار مُعين .

(بينكم أخلاقكم) : أي أعمالكم وأحوالكم .

(كما قسم بينكم أرزاقكم) : أي أموالكم سواء حرامكم وحلالكم .

(اللهم حسن أخلاقنا ، وطيّب أرزاقنا)

(أن الله تعالى يعطي الدنيا) : أي الأرزاق الدَّنيويَّة ، (من يحب) من الناس .

ومن (لا يحب) أي : ويعطيها أيضًا من لا يحبه من الناس كفرعون وهامان مثلًا .

(ولا يعطي الدين) أي : الأخلاق الحسنة والآداب المستحسنة

(إلا من أحب) أي : لا يعطيها إلا من أحب من الناس .

(١) صحيح البخاري باب حسن الخلق حديث رقم (٢٧٥)

(فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه) فالأخلاق الحسنة دليل حب الله للعبد ، سواء أعطاه الدنيا أم لا .

ولا يتوهم أن من جمع له بين الأرزاق الدنيوية والأخلاق الدينيه أنه أفضل ممن أقتصر له على الدين مع قدر كفايته من الدنيا ، والله أعلم .

(والذي نفسي بيده لا يسلم عبد) أي : إسلامًا كاملًا مطابقًا لمسماه من العبودية ، وموافقًا وصفه لمأخذه من الإسلام والسلامة .

(ولا يؤمن) أي : عبد إيمانًا تامًا .

(حتى يأمن جاره) أي : خصوصًا أو مثلًا ، (بوائقه) أي : شروره .

وحاصله أن مدار الخلق الحسن على ترك الإساءة وإحسان القلب واللسان ، إذ هما منبع الأخلاق ، وأحدهما ترجمان الآخر . [1]

المعاني والتصوير:

قوله (إن الله تعالى قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم)، فقد قابل بين تقسيم الأخلاق والأرزاق ، وأنها عطاء من الله يعطيه من يشاء من عباده ، وجاءت الجملة مؤكدة بـ (إن) لتأكيد هذا المعنى .

وقوله (إن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطي الدين إلا من أحب)، "كالنشر لما لف قبله [2] ، وأشار بـ (الدنيا) إلى الأرزاق و

(١) أنظر مرقاة المفاتيح ٣١٢٨/٨ .

(٢) اللف والنشر : أن يذكر متعدد على جهة التفصيل أو الإجمال ، ثم يذكر ما لكل واحد من أفراده من غير تعيين ، اعتمادًا على تصرف السامع في تمييز ما لكل واحد منهما ورده إلا ما هو له . بغية الإيضاح ٣٤/٤

بـ(الدين) إلـى الأخـلاق ؛ ليشعر بـأن الـرزق الـذي يقابـل الخلـق هو الـدنيا ، وليس من الدين في شيء ، وأن الأخلاق الحميدة ليست غير الدين . " [1]

وقد جاء قول الرسول – صلى الله عليه وسلم – مؤكدًا بمؤكدات هي (إن)، و أسلوب القصر بالنفي والاستثناء ، (ولا يعطي الدين إلا من أحب) ليؤكد على أن الله تعالى يعطي الدنيا لمن يحب ومن لا يحب ، ولكن لا يعطي الدين إلا لمن أحب فقط .

وقولـه : (يعطـي) و (لا يعطـي) طبـاق سـلب[2] لأن المعنيـين تقـابلا إيجابًا و سلبًا .

وقولـه : (من يحب) و (من لا يحب) طباق سلب ايضًـا لأن المعنيين تقابلا إيجابًا وسلبًا .

وقولـه (فمن أعطـاه الله الـدين فقد أحبـه) هذه الجملـة جـيء بهـا لتأكيد مـا استفيد من الكلام السابق ، وهو التأكيد على اعطاء الله الدين لمن يحبه ، وهو إطناب بالتذييل جيء به لتأكيد مفهوم الجملة الأولى .

وقوله : (والذي نفسي بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه).

قال الطيبي : " خص القلب واللسان بالذكر ؛ لأن مدار الإنسان عليهما ، كما ورد في المثل : المرء بأصغريه ، فإسلام اللسان كفه عما فيه آفاته ،

(١) الكاشف عن حقائق السنن ١٠ /٣١٩٥

(٢) طباق السلب هو : الجمع بين فعلين من مصدر واحد ، أحدهما مثبت والآخر منفي، بغية الإيضاح ٧/٤

وهي لا تكاد تنحصر ، وإسلام القلب تطهيره عن العقائد الباطلة والآراء الزائفة ، والأخلاق الذميمة ، ثم تحليتها بما يخالفها " . [1]

وإسلام القلب واللسان كناية عن الخلق الحسن ، والخلق الحسن من صفات الإنسان المسلم .

وقوله : (ولايؤمن حتى يأمن جاره بوائقه)

فقد جعل الرسول – صلى الله عليه وسلم – من صفات العبد المؤمن أن يأمن جاره بوائقه ، وهي ايضًا من مكارم الأخلاق ، فالعبد المسلم المؤمن حقًا هو من يتحلى بالأخلاق الحميدة .

وقد أكد الرسول – صلى الله عليه وسلم – ذلك بالقسم بقوله : " والذي نفسي بيده لا يسلم ..... إلخ " وقوله : " لا يؤمن ..... إلخ ".

وقد جاء الجناس بين (يؤمن – يأمن) ليؤكد المعنى ، فالأولى من الإيمان، والثانية من الأمن ضد الخوف .

****

(١) الكاشف عن حقائق السنن ٣١٩٥/١٠

الخاتمة

مما سبق من الدراسة لبعض الأحاديث النبوية وجدنا أنها تمتاز بجمال التراكيب وبناء العبارات ، فقد تعددت فيها الأساليب ، فتارة تأتي بالتوكيدات للمبالغة وللتأكيد على قضايا معينة ، وتارة تأتي بأسلوب القصر للتخصيص.

ومن تنوع الأساليب في الأحاديث ما جاءت فيه الجمل من خبرية ، وإنشائية، لأغراض بلاغية تفهم من السياق ، وجاء فيه ايضًا على حسب المقام في الموضوع والمعنى ، التنكير والتعريف ، والفصل والوصل ، والإيجاز والإطناب ، والتشبيه والاستعارة والكناية ، والمقابلة والمشاكلة ..... إلخ من الفنون البلاغية التي تبرز أسرار الأساليب وخصائص التراكيب التي يتسم بها أسلوب الحديث النبوي .

كما أكدت الدراسة تميز الحديث النبوي بالوضوح والبيان ، والإيجاز والاختصار .

وأكدت أيضًا تفوق البلاغة النبوية في كل ما يتصل بالكلام من وجوه الحسن ، من جمال الأسلوب ، وعمق المعنى .

فبلاغة الحديث النبوي تعد صدى مضيئًا ، وترجمانًا قوليًا صادقًا لقوله – صلى الله عليه وسلم – " أوتيت جوامع الكلم " .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

****

المصادر والمراجع

١- إرشاد الساري بشرح صحيح البخاري للقسطلاني ، المطبعة الأميرية بمصر ط٧ – ١٣٢٣هـ .

٢- الآداب للبيهقي ، تعليق أبو عبدالله المندوه ، مؤسسة الكتب الثقافية بيروت – لبنان ط١ ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م .

٣- الأدب المفرد للبخاري تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي ، دار البشائر الإسلامية بيروت ط٣ ١٤٠٩هـ – ١٩٨٩ م .

٤- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي ، دار الكتاب العربي بيروت – لبنان ط٩ ١٣٩٣هـ – ١٩٧٣م .

٥- أعلام الحديث شرح صحيح البخاري للخطابي ، تحقيق د / محمد بن سعد أل سعود ط١ ١٤٠٩هـ – ١٩٨٨م .

٦- بغية الإيضاح عبد المتعال الصعيدي ، المطبعة النموذجية .

٧- البيان والتبيين للجاحظ تحقيق عبد السلام هارون الناشر الخانجي ط٧ ١٤١٨هـ – ١٩٩٨م .

٨- تحفة الأبرار في شرح مصابيح السنة للبيضاوي ، تحقيق لجنة مختصة ، دار النوادر وزارة الأوقاف الكويتية ط١ ١٤٣٣هـ – ٢٠١٢م

٩- التعبير الفني في القرآن الكريم د / بكري شيخ أمين ، دار العلم للملايين بيروت – لبنان ط١ ١٩٩٤م .

١٠ – التصوير النبوي للقيم الخلقية والتشريعية في الحديث الشريف ، المكتبة الأزهرية للتراث ط١ ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م .

١١ – التوشيح شرح الجامع الصحيح للسيوطي ، تحقيق رضوان جامع ، مكتبة الرشد – الرياض ط١ ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨م .

١٢– التوضيح لشرح الجامع الصحيح ابن الملقن ، تحقيق دار الفلاح للبحث العلمي ، طبعة دار النوادر دمشق ط١ ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م .

١٣– جامع العلم والحكم في شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم للسلامي البغدادي ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة بيروت .

١٤– الحديث النبوي رؤية فنية جمالية د / صابر عبد الدايم ، دار الوفاء طبعة ١٩٩٩م .

١٥–دراسة أدبية لأحاديث نبوية مختارة لكامل سلامة الدقس ، مصابع دار الشعب القاهرة ١٩٧٦م .

١٦– السمو الروحي الأعظم والجمال الفني في البلاغة النبوية للرافعي ، تحقيق أبو عبد الرحمن ابن خلف ، دار البشير للثقافة والعلوم ط٢ .

١٧– سنن الترمذي تحقيق أحمد محمد شاكر ، محمد فؤاد عبدالباقي ، إبراهيم عوض ، البابي الحلبي – مصر ط٢ ١٣٩٥هـ – ١٩٧٥م .

١٨– شرح صحيح البخاري لابن بطال تحقيق/ أبو تميم ياسر ابن إبراهيم ، مكتبة الرشد السعودية – الرياض ط٢ ١٤٢٣ هـ –٢٠٠٣ م .

١٩ – شرح المصابيح لابن الملك تحقيق/ نورالدين طالب ، إدارة الثقافة الإسلامية ط١ ١٤٣٣ هـ –٢٠١٢ م .

٢٠ – شعب الإيمان للبيهقي تحقيق د/عبد العلي حامد ، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع الرياض ، ط١ ١٤٢٣هـ –٢٠٠٣ م .

٢١ – صحيح البخاري تحقيق /محمد زهير الناصر ،ط١ ١٤٢٢ هـ .

٢٢ – صحيح مسلم تحقيق / محمد فؤاد عبد الباقي ،دار إحياء التراث العربي –بيروت .

٢٣– فتح الباري لابن حجر ، تصحيح محمد فؤاد عبد الباقي ، محي الدين الخطيب ،دار المعرفة – بيروت ١٣٧٩ هـ .

٢٤ – الكاشف عن حقائق السنن للطيبي تحقيق د/ عبد الحميد هنداوي ، مكتبة نزار مصطفى مكة المكرمة –الرياض ط١ ١٤١٧ هـ –١٩٩٧ م .

٢٥ – الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري للكرماني ، دار إحياء التراث بيروت – لبنان ط٢ ١٤٠١ هـ – ١٩٨١ م .

٢٦ – كوثر المعاني الدراري في كشف خبايا صحيح البخاري لمحمد الشنقيطي مؤسسة الرسالة بيروت ط١ ١٤١٥ هـ ١٩٩٥ م .

٢٧ – الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم محمد الأمين الهرري ، راجعه لجنه من العلماء ، دار المنهاج ودار طوق النجاة ،ط١ ١٤٣٠هـ –٢٠٠٩ م.

٢٨–اللامع الصبيح بشرح الجامع الصحيح لشمس الدين البرماوي تحقيق نور الدين طالب ،دار النوادر –سوريا ط١١٤٣٣هـ – ٢٠١٢م.

٢٩ – لباب البديع د/ محمد شرشر ١٤٠٧ هـ ١٩٨٦ م.

٣٠– لمعات التنقيح في شرح مشكاة المصابيح لعبد الحق الدهلوي تحقيق د/ تقي الدين الندوي ، دار النوادر دمشق – سوريا ط١ ١٤٣٥ هـ– ٢٠١٤ م.

٣١ –المتواري على أبواب البخاري لابن المنير ، تحقيق صلاح الدين أحمد ،مكتبة المعلا –الكويت .

٣٢ – مختصر سنن أبي داود للمنذري ، تحقيق محمد صبحي حلاق ،مكتبة المعارف للنشر والتوزيع –الرياض ط١ ١٤٣١ هـ ٢٠١٠ م.

٣٣ – مختصر الإمام البخاري للألباني ،مكتبة المعارف للنشر والتوزيع الرياض ط١ ١٤٢٢ هـ ٢٠٠٢ م.

٣٤ – مختصر صحيح مسلم للمنذري تحقيق محمد ناصر الألباني،المكتبة الإسلامية بيروت – لبنان ط٦ ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧م.

٣٥ – مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ، أبو الحسن المباركفوري ، إدارة البحوث العلمية – الجامعة السلفية ببارس الهند ط٣ ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤م.

٣٦ – مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح الملا على القارى دار الفكر بيروت – ١٤٢٢هـ –٢٠٠٢م.

٣٧– مصابيح الجامع للدماميني تحقيق نور الدين طالب، دار النوادر سوريا ط ١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م.

٣٨– المفاتيح في شرح المصابيح الزيداني تحقيق لجنة محتصة دار النوادر – وزارة الأوقاف الكويتية ط ١٤٣٣هـ – ٢٠١٢م.

٣٩– منحة الباري بشرح صحيح البخاري السنيكي، تحقيق سليمان العزمي

٤٠– من روائع الأدب النبوي د/ كامل سلامة الدقس ط٢ ١٣٩٦هـ – ١٩٧٦م.

٤١– الميسر في شرح مصابيح السنة النوربشتي تحقيق د/ عبد الحميد هنداوي، مكتبة مصطفى الباز ط٢ ١٤٢٩–٢٠٠٨م.

فهرس الموضوعات

١- المقدمة
٢- التمهيد
الفصل الأول
١- النذير
٢- آولياء الله واحباؤه
٣- الساعي على الأرملة والمسكين
٤- المؤمن والإيمان
٥- الهجر
٦- التواضع
٧- الظلم
٨- الوصايا النبوية
٩- الدنيا والآخرة
١٠- الرياء والسمعة
١١- فضل الفقراء
١٢- زهرة الدنيا
١٣- الفرق بين الإسلام والإيمان
١٤- المنفق والبخيل
١٥- عطاء الله للعبد
الخاتمة
فهرس المصادر والمراجع
فهرس الموضوعات